الخروج إلى النور

حوار عن هذا الحضور الواعي

أحمـد لطفـي

الفصل الأول **هذا الحضور الواعي**

الفصل الثاني **نحن والتراث**

الفصل الثالث **نحن والغرب، الحداثة ما لها وما عليها**

الفصل الرابع **مفكرونا بين التراث والحداثة**

الفصل الخامس **تأسيس الاجتماع**

الفصل الأول

هذا الحضور الواعي

كان نهارا صحوا ككل نهار يطل على مدينتهما. في هذه الساعة المبكرة من الصباح تكون الحديقة شبه خالية من الزائرين. يصطف النخيل الملكي الرشيق ذو الجذوع البيضاء الملساء على ممرات مرسومة بعناية تفصل بين مساحات فسيحة من النجيل وأحواض الزهر. وفي مواضع متفرقة من هذا البساط الأخضر تعلو أشجار باسقة عريقة تسخو بظلالها الوارفة. إن تقدمتَ إلى وسط الحديقة رأيتَ، إلى ناحية اليسار، جسرا خشبيا يعلو بركة صغيرة تكسوها نباتات مائية عريضة الأوراق. وربما شاهدت بين تلك الزنابق زهرة لوتس استجابت لنداء الشمس الحانية فتفتحت بتَلالَتُها تتألق بلونها الأبيض الوردي إزاء الخضرة الداكنة للماء الراكد.

في انتظار صديقه، جلس ''راجي سلام'' على مقعد خشبي في ظل شجرة عريقة تُلقي بظل منبسط وإن تخللته، مع ذلك، دفقات من ضوء الشمس تشيع دفئا مستطابا. تابع ببصره فراشات ترفرف بأجنحتها الملونة، ونحلاً يتنقل بين الزهور في دأب لا يعرف الكلل، وهدهداً يطير هنا وهناك، يفرد جناحيه فتنبسط شرائطهما البيضاء والسوداء، ثم يهبط ويسير مطمئنا فوق العشب رافعا رأسه المكلل بتاج الحكمة.

كانت الطبيعة منصرفة لشؤونها في سكينة هانئة. وأخذت دفقات من هذه السكينة تسري في نفسه، حتى وإن لم تنجح تماما في تهدئة خواطره ...

لقد طَوَّف بكل ما أتاحته له نشأته من معارف، وبما تيسر له منها إبان تجواله في بلاد الله الواسعة. وكم حاول، أمام استعصاء أسئلته المحيرة وتحت ضغط رغبته في الانتماء إلى شيء ما، إقناع نفسه بهذه الفكرة أو تلك. لكنه كان يدرك في أعماقه، طول الوقت، أنه كان

يتكلف هذا الاقتناع تكلفا. فكلما ازدادت معرفته بفكرة منها بان له قصورها ونقصها. وها هو لا يفتأ يتأرجح بين تسليم، يغلبه على أمره أحيانا، بما يبدو أنه مقنع للآخرين، وبين استقامة فكرية تعصمه، في نهاية المطاف، من أن يطمر تساؤلاته تحت ركام الاعتياد والاستسهال. ولذا فإن اليقين الذي يحدثه به ''محب '' يحيره. هل هو ثمرة بحث حر كما يقول صديقه؟ وهل سيصمد أمام تساؤلاته العنيدة؟

أقبل ''محب عرفان'' من طرف الممشى يتطلع مفتشا عن صديقه. ولما لمح ''راجي'' لوح له مبتسما وأسرع الخطو لينضم إليه. حيا صديقه وجلس. تبادلا الأسئلة المعتادة ثم ما لبث ''راجي'' أن التفت إلى صديقه قائلا:

- إن ذلك اليقين الذي تتحدث به يحيرني ...
- نعم يا ''راجي'' يمكننا أن نكتشف معنى الوجود بشكل يقيني عندما نتعرف على طبيعتنا الحقيقية. وبعين هذه المعرفة سننظر إلى الحياة فنتبين أنها، رغم كل ما قد يحيط بها من مظاهر الاضطراب، فيض من نعيم داخلي يتدفق في فورات من سعادة لا تُعزى لسبب محدد ...
- هذا هو اليقين الذي يحيرني! فمعظمنا يعيش الحياة كمشكلة، كعبء، ككفاح متصل لا تتخلله إلا ومضات من سعادة خاطفة لا تلبث أن تبهت ذكراها وتذوي، لتتركنا معلقين بين رجع يتناءى ووعد يراوغ. كما أننا ندرك بشكل خفي، في لحظات صدق لا نترك لها فرصة لتدوم، أن ما نضفيه على الحياة من معنى أمرٌ قد أخذناه، في معظم الأحيان، على علاته، وأن ما فيه من التسليم والتسرية يفوق ما فيه من اليقين والإقناع ...
- وهذا هو في الواقع ما يدفعنا إلى البحث عن مخرج ...
- وهل تعتقد حقا أن هناك حقيقة يمكن معاينتها على نحو يخلصنا من هذا الإحساس الممض بالقصور المتأصل في الحياة كما يحياها معظمنا؟

- دعنا نبدأ بتقصي الأسئلة التي نطرحها جميعاً عن هويتنا وعن معنى الوجود وعن موقعنا منه، ودعنا نمضي بها إلى حيث تقودنا. أي دعنا نقوم برحلة استكشاف حر، إن شئت، لتجربة الوجود كما نعاينها ...
- وهل تعتقد أن هذه الأسئلة التي أشرت إليها توجد لها حقا إجابات. وعندما أتحدث عن الإجابات أقصد الإجابات المرضية بحق التي لا تترك وراءها شكوكا كتلك التي تتجاهلها الحلول الجاهزة الدارجة وتخشى الاقتراب منها لعجزها عن تبديدها ...
- فلنتفق من الآن على أن الأمر كله منوط بالتجربة المباشرة الحية. والمختبر الوحيد هنا هو حياة كل منا ...
- هذا اليقين الذي تتحدث به يا ''محب'' لئن كان واعداً لأنه يبشر، كما تَدَّعي، بسعادة مقيمة – وهل هناك من يمكنه أن يرفض الإنصات لقول من هذا القبيل – فإنه أيضاً مزعج ومحبط للغاية لأنه يوحي، على نحو ما، بأن الأمر في متناول كل إنسان ما دامت التجربة المباشرة هي ركيزة هذا المسعى، كما تقول. فهل كَلَّت أبصارنا حتى نتغافل عما هو تحت أنظارنا طول الوقت؟
- هو بالفعل تحت أنظارنا طول الوقت!
- وكيف لا نراه؟
- ربما لأن أشياء أخرى هي التي تسترعي انتباهنا!
- لا أفهمك.
- قل لي إذن ما الذي تراه في هذه الحديقة؟

تطلع ''راجي'' حوله محاذرا أن يتسرع في الإجابة. ولاحظ أنه يكره أن يوضع في ذلك الموقف الذي يطرح فيه سائلٌ سؤالاً يعرف إجابته ولكنه يتلذذ، كما تشي ابتسامة تهكمية لا ينجح في إخفائها، برؤية حيرة الآخرين!

- هل هي أحجية؟
- كلا بالطبع. إنها تجربة عملية كما اتفقنا. ولا مجال هنا للتهكم من حيرة أحد. فكلنا مررنا من هنا ذات يوم ...

كيف عرف ''محب'' أنه فكر في تهكم السائل؟ هل يقرأ أفكاره، أم أنه مر بدوره من هنا ذات يوم، كما يقول، لا أكثر ولا أقل؟

- عزيزي ''راجي'' أرجوك ركز في التجربة ذاتها ودعك من رأي الآخرين في إجابتك فنحن لسنا بصدد مسابقة في الذكاء! ليس المطلوب منك سوى صدق المحاولة، مهما كانت النقطة التي تبدأ منها. ولاحظ أن كل لحظة من لحظات تجربتنا الوجودية المباشرة هذه التي نحاول أن نستكشفها معا تحتوي على سر الوجود كله. قل لي الآن ما الذي تراه في هذه الحديقة؟

هل هذه التجربة التي يقومان بها الآن قادرة على كشف سر الوجود كله؟ رغم تهيب ''راجي'' بشكل ما من هذه الملاحظة فقد عول على صدق المحاولة. تطلع أمامه وقال ببساطة وتلقائية:

- أرى أشجارا عالية عريقة وأزهارا حمراء وصفراء وزرقاء وعشبا أخضر ...
- أرجوك دقق أكثر!
- وممرات متعرجة ...
- وماذا أيضا؟
- وفراشات تلهو ونحل لا يكل ...
- وماذا أيضا؟
- وناسا تتنزه هنا وهناك ...
- وماذا أيضا؟

بدأ صبر ''راجي'' ينفد تحت تأثير هذا الإلحاح:

- وطيورا تتقافز من غصن لآخر ...
- عظيم، وماذا أيضا؟
- حقيقة، لا أرى شيئا آخر
- وهكذا نتبين أن الأشياء تجتذب انتباهنا فلا نبصر ما هو أقرب إلى أنظارنا منها!
- وما هو هذا الشيء؟
- إنه الفضاء الذي توجد فيه ...

سرت رعدة خفية في جسد ''راجي'' وهو ينتبه في لحظة خاطفة إلى ما كان بالفعل تحت نظره طول الوقت:

- بالفعل!
- ولو كنت سألتك ما الذي تراه في هذا الشارع لأخذت تعدد أيضا ما به من أشياء. في حين أن الأمر الهام إلى جانب أشياء الحديقة وأشياء الشارع هو الفضاء الذي تظهر فيه، الفضاء الذي هو شرط لظهور كل الأشياء ...
- ... والذي قد لا يسترعي انتباهنا من فرط شفافيته ومن فرط اعتيادنا عليه واعتبارنا إياه أمرا مسلما به ...
- بالفعل، كنا نراه ولكننا نأخذه كأمر مسلم به. فلولا الفضاء ما كان بوسع الأشياء أن توجد في المكان. وعندما ننتبه إليه فإن ذلك لا يضيف إلى المشهد شيئا جديدا. إننا ننتبه فقط إلى ما كنا نراه طول الوقت ...

سادت لحظة صمت طويلة مفعمة بسكينة غريبة ...

- وبالمثل عندما نسمع قطعة موسيقية تُعزف، فإن أسماعنا تجتذبها النغمات، لا الصمت الذي منه تنبع وفيه تتلاشى. ولولا الصمت ما كان بوسع النغمات أن توجد في

الزمان. وعندما ننتبه إلى الصمت فإن ذلك لا يضيف إلى القطعة الموسيقية شيئا جديدا. إننا ننتبه فقط إلى ما كنا نسمعه طول الوقت ...

من الذي أوحى له أن يتحدث الآن تحديدا عن الصمت؟

برغم هذا الخاطر العابر، ظل ''راجي'' مستغرقا فيما أحاله إليه اكتشافه: الفضاء الذي تظهر فيه الأشياء، ثم الصمت الذي تنبثق منه الأصوات وفيه تتلاشى. ويعود لتأمل الحديقة فيرى الآن الفضاء والأشياء معا. ويعود لينصت لتغريد تلك الطيور الذي يتناهى إلى سمعه فينتبه الآن للصمت والأصوات معا ...

بدا أن ''محب'' يتهيأ للانتقال إلى نقطة جديدة، إذ به يقول:

- والآن قل لي من أنت؟

على عكس حذره الأول، اندفع ''راجي'' يقول:

- أنا ''راجي''!
- وهل اسمك هو أنت؟
- هي، في الحقيقة، مسألة صدفوية تماما!
- لاحظ يا عزيزي ''راجي'' أني أسألك عن جوهرك، عن ماهيتك، عن ذاتيتك أو هويتك ...
- أنا كاتب، كما تعرف ...
- وماذا كنت قبل أن تكون كاتبا؟
- كنت طالبا ثم صحفيا ..
- فهل تغيرت أنت عندما تغيرت مهنتك؟
- كلا بالطبع!

- إذن أنت لست مهنتك ...
- أنا الآن رجل كهل، كما ترى ...
- وماذا كنت قبل أن تكون كهلا؟
- كنت طفلا فصبيا فشابا وإن امتد بي العمر قد أصير يوما شيخا مسنا ...
- فهل تغيرت مع تقدم العمر؟
- بالتأكيد، فما أعرفه الآن وأنا رجل ناضج – كما أتصور على الأقل – ليس هو ما كنت أعرفه وأنا فتى غر ...
- وعندما تنظر إلى صورتك وأنت فتى غر، كما تقول، هل تتصور أنك تنظر لصورة شخص آخر؟
- كلا بالتأكيد إنها صورتي أنا ...
- أي أنك لست خبراتك ولا عمرك ...
- نعم، يمكنني أن اتفق معك في هذا ...
- إذن من أنت؟
- أنا كل ما قرأته من كتب وكل ما سمعته من موسيقى وكل ما ألفته من كتب وكل ما دبجته من مقالات. كل ما حققته من نجاحات وكل ما منيت به من إخفاقات. كل ما عشته من لحظات فرح أو حزن. كل ذلك أنا ...
- هل تقصد، في عبارة واحدة، أنك مضمون وعيك؟

عاود ذلك الحذر ''راجي'' مخافة التسرع في الإجابة، ثم خرجت كلماته متريثة:

- نعم، هذا ما أتبينه ... أنا، باختصار، مضمون وعيي ...

- لكن مضمون وعيك، كما قلتَ أنت نفسك، ما برح يتغير. فهل تغيرت أنت؟ هل أنت وأنت تقرأ غيرك وأنت تسمع الموسيقى غيرك وأنت تكتب؟ هل أنت في الفرح غيرك في الحزن؟
- برغم تغير حالتي الوجدانية في الأمثلة التي سقتها – أو ما أطلقتَ عليه أنت مضمون وعيي – فإنني كنت أنا نفسي في كل ذلك ...
- أنت لست إذن مضمون وعيك. فمَن أو ماذا أنت إذن؟

ظل ''راجي'' صامتا لبرهة، ثم قال:

- إنه حقا سؤال محير. فكل صفة أنسبها لنفسي أجد أنها متغيرة وأنها بشكل ما لا تمس جوهري. فما هو هذا الجوهر؟
- فيما يشبه انجذاب انتباهنا إلى الأشياء المادية لا إلى الفضاء الذي تظهر فيه، وإلى الأصوات لا إلى الصمت التي تنبثق منه، عندما يظهر مضمون الوعي، أي عندما تظهر إدراكات الحواس والأحاسيس البدنية والأفكار على سطح الوعي، ينجذب انتباهنا بكليته إلى ذلك المضمون لا إلى الوعي ذاته الذي يظهر فيه، فنتصور أننا هذا المضمون مع أننا أساسا الوعي الذي يظهر على سطحه كل ذلك. وعندما ننتبه إلى ذلك الوعي، نتبين أننا كنا، بالمثل، ندركه طول الوقت، وأن انتباهنا إليه لم يضف إلى الواقع شيئا جديدا. وعندما نعود الآن ونلتفت لمضمون الوعي سندرك ذلك المضمون كما كنا ندركه من قبل، لكن مع الانتباه في الوقت ذاته للوعي الذي يظهر فيه ...

في لمحة خاطفة، ارتد ''راجي'' إلى راءٍ يُطالع من بعيد أفكاره ومشاعره وإدراكاته. ومر أمامه شريط حياته وهو، بشكل ما، خارج الشريط كمشاهد يشاهده. هل يتنبه لبعد جديد كان غائبا عنه طوال هذه السنين؟ لكن من موقع المشاهد هذا أحس أنه، بشكل ما، غير متورط

في أحداث حياته، وبدا كأن عبئا ما قد أخذ ينزاح وبدأ يستشعر سكينة غامضة. ما وراء هذا الاكتشاف؟

ظل ''محب'' صامتا برهة من الزمن. أكان ذلك ليترك لصديقه فسحة يستقر فيها اكتشافه قبل أن يكمل الحديث، أم لأن الإحالة إلى هذا الرائي النهائي للأفكار والمشاعر والإدراكات قد حولت انتباههما، كليهما معا، إلى تلك الحقيقة التي توحي بجلال خفي لكنه قريب، شديد القرب ...

- انتباهنا يكون موجها بكليته في العادة إلى الأشياء لا إلى من يعي الأشياء ...

بدا أن ''راجي'' قد فقد، للحظة، كل رغبة في السؤال. كان كمن يتقصى هذا البعد الذي تَكَشَّف له، هو يبدو فقط بعدا جديدا على الرغم من أنه كان موجودا على الدوام. وانتباهه له لم يضف إلى الواقع شيئا، وإن كان قد أضاف إلى فهمه حقيقة أخرى هي وعيه بهذا البعد، وهو يريد الآن أن يتقصى هذا البعد ولا يجد في نفسه ميلا لأن يشوش عليه بالكلام. ولكنه كان، مع ذلك، يترقب كلمات ''محب'' ...

- ومشكلتنا الجوهرية تبدأ من هذا الخلط الأساسي. مشكلتنا الجوهرية تبدأ من اعتبار ذاتنا شيئاً من الأشياء، في حين أنها من يدرك كل الأشياء، نحن هذا الوجود الواعي، أو الحضور ... لقد اعتدنا أن ننظر إلى أنفسنا كشيء في حين أننا أساساً الوعي الذي يدرك هذا الشيء ...

''الوجود الواعي'' ''الحضور''! هل يتعرف على نفسه الآن لأول مرة؟

ظل ''راجي'' موزعا بين اكتشافه – إذ شعر أنه أشبه بمن يتعرف، في لمحة خاطفة، على صورته في المرآة للمرة الأولى – وتساؤلاته عمن يكون هذا الذي يراه؟

- ولماذا نطلق على الوعي اسم الوجود الواعي أو الحضور ؟
- ألا ندرك، في تجربتنا المباشرة للوجود، أن هناك شيئا ما، أياً ما كان هذا الشيء، عوضا عن ''لاشيء''، أن هناك وجودا ما وأن هناك وعيا بهذا الوجود؟

- بالفعل!

- هذا الوجود وذلك الوعي متلازمان إذن كوجهين لحقيقة واحدة. ولذا نطلق عليها اسم الوجود الواعي أو الحضور الواعي. وهذا الحضور هو ذاتنا الحقيقية ...

هل هو هذا الحضور؟ وما طبيعة هذا الحضور؟

إنني فعلا أشبه بمن يتعرف على نفسه للمرة الأولى ... احتاج الآن أن أسمع. وأعرف في الوقت نفسه أني سأعود، عندما أنفرد بنفسي، إلى تأمل كل ذلك مليا ...

- هذا هو أهم اكتشاف على الإطلاق، لو أنه جاء نتيجة خبرة مباشرة. وكل ما سنناقشه فيما يلي لن يكون سوى نتائج مستخلصة من هذا الاكتشاف البسيط والجوهري في آن واحد، وهي نتائج لا تتخيل مدى ثوريتها حقاً. هي أشبه بالحلقة المفقودة في اللغز الكفيلة بفض سره وتحويله من غموض مبهم محير إلى وضوح بديهي ...

هذا السلام الغريب الذي يشعر به ''راجي'' لم يشجعه إلا على الاستماع لكلام لم يعد يدري من أين يأتي. أعلى لسان صديقه ''محب'' أم من صدى غامض بعيد يتردد في أعماقه. هل الوعد الغامض، اكتشاف معنى الوجود، بدأ يتحقق؟

- وليس هذا مجرد اكتشاف يُصنف في خانة المعرفة فحسب. فالوجه الآخر لهذا الاكتشاف هو تبين أن كل صنوف المعاناة والشقاء والصراع التي نعيشها والتي نراها حولنا هي نتيجة تصورنا – وهو تصور يرقى في الحقيقة إلى مرتبة الاعتقاد الراسخ – أننا مجرد كيان بدني ذهني، أننا كيان آخر غير جوهرنا الحقيقي – هذا الحضور الواعي الذي يدرك كل شيء. فنحن ننسب إحساسنا بالهوية، ذاتنا الحقيقية، لا إلى ذلك الحضور الواعي بل إلى الكيان البدني الذهني التي أسقطنا عليه إحساسنا بالهوية وأسميناه ''الأنا''. تَصَوُّر أن هذه ''الأنا'' الزائلة هي ذاتنا الحقيقية هو سبب كل الشقاء. هذه هي الفكرة الأولى التي سُطر بها السطر الأول في قصتنا كلها. هذه

هي الخطيئة الأصلية الوحيدة، إن شئت. خطيئة التعامي عن ذاتنا الحقيقية. هذا هو السقوط أو الهبوط الوحيد ...

- وهل تقصد أن ''الأنا'' مجرد مفهوم؟
- شعورنا بالهوية يحيل إلى واقعة حقيقية. لكن المشكلة أننا بدلا من أن ننسب هذه الواقعة إلى ذاتنا الحقيقية، الوجود الواعي، ننسبها إلى مفهوم مركب من الأفكار والأحاسيس البدنية والإدراكات الحسية. في حين أن تلك كلها، كما تلاحظ، أشياءٌ تُرى، لا ذاتٌ تَرى.
- مفهوم ''الأنا'' يحَوَّل إذن هذا الكيان البدني الذهني إلى ذات تتخذ مقرا للهوية ...
- بالضبط. والآن دعنا نتأمل الأنا هذه، ما هي في الحقيقة؟

استغرق ''راجي'' في تأمل طويل، فأجاب ''محب'' عن السؤال:

- ألا ترى أنها تعد، في نهاية المطاف، فكرة مركبة تقترن بأفكار أو أحاسيس بدنية أو إدراكات حسية معينة؟

ظل ''راجي'' مستغرقا في التفكير، ثم أجاب:

- بالفعل ...
- والآن هب هذه الفكرة للفضاء، إلى الحضور الواعي الذي تظهر فيه ...

ما أن استجاب ''راجي'' لتلك الدعوة حتى شعر كأنه تخلص من عبء لصيق، ثم بدأ يتسلل إليه سلام غامض. ومن هذا الموقع الذي بدا له متنائيا بقدر ما عن حالته الشعورية المألوفة، أخذت تصل إليه كلمات ''محب'':

- فما ''الأنا'' في النهاية إلا مضمون يظهر ويمضي. اترك الأنا تمضي هي الأخرى. فما الذي يتبقى بعد عبور الأنا، بعد تلاشي الأنا في الفضاء الذي تظهر فيه؟

ظل ''راجي'' صامتا لا يجيب، فأضاف ''محب'':

- لا يبقى إلا الفضاء، إلا هذا الحضور الواعي ... والآن دعنا نسأل هل لهذا الفضاء مركز أو محيط؟ أم أن أي مركز أو أي محيط هو مجرد شيء آخر يظهر فيه؟ ... الحضور الواعي ليس له مركز أو محيط، هو لامتناه، إذن، موجود في كل مكان. إحساسنا بالهوية شيء حقيقي ولكنه يحيل، لا إلى الأنا، بل إلى الحضور الواعي ...

ظلا صامتين برهة ثم قال ''محب'':

- ما ''الأنا'' إلا تركيب من الأفكار والأحاسيس البدنية والإدراكات الحسية، أي ما هي، في نهاية المطاف، إلا تلك الصفات التي تبادرت إلى ذهنك عندما سألتك من أنت. وهذه كلها أشياء تُدرَك. لكنك لست شيئا يُدرَك. أنت من يُدرِك الأشياء. وشعورنا بالهوية يحيل لا إلى تلك ''الأنا'' المُدرَكة، لا إلى الأشياء، بل إلى الحقيقة الواعية بالأشياء، إلى الحضور الواعي. وبذلك تعد الأنا انتحالا للهوية بمعنى ما. فذلك المفهوم يستند إلى شيء واقعي نعم، هو إحساسنا بالهوية، ولكننا ننسب هذه الهوية إلى مجرد شيء مدرك لا إلى الذات الحقيقة، الحضور الواعي بكل الأشياء.
- ما الأنا، إذن، إلا هوية موهومة ينسج حولها كل واحد من الناس الأسطورة الخاصة به ...
- وهذا هو خطأنا المعرفي الأول وهو في ذات اللحظة السبب الأول لمعاناتنا ...
- ولماذا تربط على هذا النحو بين فكرتنا عن حقيقتنا وسبب شقائنا؟
- عندما نجهل طبيعتنا الحقيقية ولا نختبر الواقع انطلاقاً منها، نلاحظ أن هناك في أعماق النفس شعوراً وجودياً بالنقصان ...
- شعور بالنقصان؟
- أو شعور بعدم الاكتمال. وأنا لا أقصد هنا بالطبع الشعور بالنقص بالمعنى الشائع – الذي يقصد به المسافة بين فكرة ما تتصورها أنا معينة عن نفسها وبين مثال منشود تحكم هذه الأنا على نفسها بالقياس إليه – بل أقصد الشعور الوجودي بأن

هناك شيئاً جوهريا مفتقداً حتى لو لم ندرك كنهه بالضبط. هو، إن شئت، المسافة بين اعتبار الأنا مقرا للهوية، والمعرفة اليقينية بطبيعتنا الحقيقية. أو هو، إن شئت، المرادف – على صعيد الشعور – لتصور فكري خاطئ عن هويتنا الحقيقية ...

- وهذا الشعور بالنقصان الوجودي ما علاقته بالمعاناة؟
- لأن الشعور بعدم الاكتمال ببساطة شعور مؤلم. ورد الفعل التلقائي في مواجهة الألم هو محاولة التخلص منه، أليس كذلك؟
- بالفعل ...

هل تصبح معرفتنا بطبيعتنا الحقيقية بداية للخروج من دائرة الشقاء الأبدية هذه؟ وهل يمكن حقا أن نعيش من منظور الحضور الواعي، المنزه عن النقصان وعن عدم الاكتمال الوجودي؟ هل هذا يفسر السلام الغامض الذي بدأ يتسلل إليه عندما أخذ يراقب ''الأنا'' من موقع الحضور الواعي؟

- ومحاولة التخلص من الألم هي سعي تعويضي دائم لسد هذا النقصان الوجودي الذي لا قرار له. فما أن يتخذ إحساسنا بالهوية مظهر الشيء المرئي لا الذات الرائية النهائية، أي ما أن تظهر فكرة أننا كيان شخصي فانٍ ومحدود، فكرة الأنا بمعناها الشائع المألوف، حتى تدور، في نفس اللحظة، عجلة السعي التعويضي ...

لم يغب عن ''راجي'' تأثير تعرفه الجديد على نفسه من منظور الرائي النهائي هذا، ومع ذلك أخذت الأسئلة تتدافع في ذهنه في اتجاهات متعددة.

- وما هو الشكل الذي يأخذه السعي إلى التخلص من هذا الألم الناشئ عن عدم الاكتمال الوجودي؟
- يحاول الإنسان عندئذ تخطي الألم الوجودي هذا بالسعي إلى تحقيق ما يتصوره إيجابيا، أيا كان ذلك، وإلى الابتعاد عما يتصوره سلبيا، أيا كان ذلك. هذه باختصار هي حياته. فكل ما جلب له المتعة – بأوسع معانيها – في الماضي يريد أن يكرره في

المستقبل، وكل ما جلب له المعاناة – أيضا بأوسع معانيها – في الماضي يريد أن يتجنبه في المستقبل. ومع تكرار ما جلب المتعة والهروب مما جلب المعاناة، تتكون شيئا فشيئا دائرة الإيجابي والسلبي. وينقسم عالمه عندئذ إلى أشياء يتعلق بها ويرجوها، وأشياء ينفر منها ويخشاها. ويحدث توحد مع هذا التصنيف. ويُعَرِّف الإنسان نفسه بصورة شعورية أو لاشعورية على هذا الأساس. وتصبح الحياة هي هذا السعي المتوتر بين هذين القطبين، هذا السعي الممض الذي لا يتوقف لتأكيد هذا التصنيف، أي لتأكيد الأنا المفهومة على أنها أشتات من ذكريات وآمال. ويصبح هذا هو المعنى الفعلي، أي الواقعي أو الحادث فعلا، للحياة – تأكيد هذه الأنا ...

صمت ''محب'' برهة، ربما ليمهد لانتقاله إلى نقطة جديدة، ثم قال:

- أما الحاضر، وهو الزمن الوحيد بالمعنى الوجودي، أو بالمعنى المطلق، المنفتح على الراهن الخالد أبدا، فإن الإنسان لا يعيشه إلا كمعبر يتنقل عليه بين ماض أشبه بالحلم ومستقبل أقرب للوهم. ولذلك فهو يعيش في حالة اغتراب دائم عن وجوده الحقيقي ...

سكت ''محب'' مرة ثانية في هذا التأمل المشترك ثم أضاف:

- والحقيقة إن هذه الأنا الوهمية مسكينة حقا! لأنها تقف إزاء الوجود بأسره، فما أشد ضآلتها. ولكن لما كانت هي مَجمع اليقين الوحيد، فإنها تصبح – بالنسبة لنفسها – مدار الوجود بأسره. لا بد أن تحظى بالاعتراف والحب وأن تفرض نفسها. فالمسألة بالنسبة إليها هي حقا مسألة حياة أو موت، فلا يقين أمامها خارج هذه الدائرة الضيقة، مهما اتسعت ...

كأن ''محب'' يحدثه عن نفسه. هذه هي بالفعل حياته، بل حياة معظم الناس ...

- إنها مأساة حقيقية! مأساة لأن ذلك السعي الشقي لا مبرر له في الحقيقة، إذ يكفي أن يدرك الإنسان أنه الحضور الواعي حتى يغيب في لحظة واحدة ألم النقصان الوجودي، أي الدافع إلى هذا النوع من السلوك ...
- هكذا تسير بالفعل حياة معظمنا!
- ما دام الكلام قد قادنا إلى هذه النقطة، وهي نقطة اعتقد أننا سنعود إليها مرارا لنتناولها من زوايا عديدة، دعنا نطلق إذن على ''نمط الأداء'' هذا، القائم على السعي إلى تحقيق كل ما هو إيجابي وتجنب كل ما هو سلبي في ضوء خبرة الماضي وإسقاط كل ذلك على المستقبل، ''نمط تأكيد الأنا'' ...
- كأن نمط تأكيد الأنا هذا هو مفتاح سلوك معظم الناس حقا، إن تأملناه عن كثب ...
- والمحزن حقا في الأمر هو أن كل هذا السعي لن ينجح في تحقيق السعادة!

هل يمكن أن يكون الجهل بطبيعتنا الحقيقية هو سبب كل هذا الشقاء والصراع؟

- لكن عدم نجاح نمط الأداء هذا في تزويدنا بالسعادة هو ما يدفعنا إلى البحث عنها في اتجاه آخر. هو الذي يدفعنا إلى البحث عن المعنى. وهو الذي يجعلنا نتحدث الآن. فإخفاقنا المتكرر في التماس السعادة في الأشياء ...
- ... حقا، لأنك حتى إن حصلت على ما تتصور أنه سبب من أسباب السعادة فإنك ستشعر في ذات اللحظة بالخوف من فقدانه ...
- نعم، وإخفاقنا المتكرر في التماس السعادة في الأشياء يقودنا إلى البحث عنها فيمن يعي الأشياء. في الحضور الواعي الذي لا نقصان فيه أو عدم اكتمال ...

هل يكون هذا إذن هو السر المستور؟ هل يكون شقاؤنا نداءً للتوجه إلى مصدر السعادة الحقيقي؟ هل يكون هذا هو معنى الوجود؟ أن يكون معنى الوجود، بشكل ما، هو السير في المسار العكسي: الشقاء يقود إلى البحث عن مصدر الألم، والألم يشير إلى مصدره هو عدم

الاكتمال الوجودي، وعدم الاكتمال يقول بدوره إن سببه هو عدم معرفتنا لطبيعتنا الحقيقية. هل يكون معنى الوجود إذن هو اكتشافنا لطبيعتنا الحقيقية فيتحقق تلقائيا الاكتمال الوجودي؟

- لطالما سألت نفسي أيكون ما يتردد في أعماقنا من صدى بعيد، لم ننصت دوما له، رجعا لذلك النداء الغامض للبحث في اتجاه آخر؟ لكن أي اتجاه؟
- نعم، أنه بحث عن اكتمال نتحرق شوقا إليه بكل وجودنا بالمعنى الحرفي. أما الإحباط الذي طالما قاسيناه فليس سوى الوقع المؤلم لتكرار ذلك السقوط الأبدي في الخطيئة الوحيدة وفي الجاهلية الوحيدة: عدم معرفة طبيعتنا الحقيقية. ولما كنا نأخذ أنفسنا على أننا ''شيء''، كان لا بد أن نبحث عن الاكتمال في أشياء أخرى. كان بحثنا متجها، إذن، إلى الخارج. لكن ما أن ندرك أننا كذات لا يمكن أن نكون ''شيئا''، حتى يتحول انتباهنا إلى الداخل، إلى ذلك الحضور الواعي ...

غاصا مجددا في صمت لا يقويان على قطعه. ثم ما لبث ''محب'' أن قال كأنه يحدث نفسه:

- غير أننا لم نكن بمستطيعين أن نكابد هذا الفقد، ولا أن نشعر بهذا الشوق، ولا أن نخشى هذا الإحباط، لو لم نكن قد عرفنا هذه الوحدة الأصلية بشكل ما، لو لم تكن هذه الوحدة تعبر عن طبيعتنا الحقيقية، وإلا فمن أين يأتي هذا الشوق الوجودي العميق إن لم يكن يحيلنا إلى شيء نعرفه بالفعل، لأنه طبيعتنا الحقيقية؟
- وإنني لأتساءل، بالفعل، كيف كان لهذا التقصي الذي نجريه الآن أن يؤثر في نفسي لو لم يكن يحيل بشكل ما إلى شيء حقيقي في نفسي بالفعل، إلى جوهري!
- والمسألة يا ''راجي'' تعنينا، كما ترى، كلنا فرداً فرداً. فذلك هو حقنا الفطري في التحقق والحرية والسعادة، بأعمق معنى ...

انتصف النهار، وتبدلت مواقع الضوء والظل فقام الصديقان يتجولان بخطوات وئيدة في هذه الحديقة الواسعة، وما لبث ''راجي'' أن قال:

- دعنا إذن نناقش طبيعة هذا الحضور الواعي ...
- عظيم، دعنا نتساءل أولا: هل للحضور الواعي سمات شخصية؟
- كلا بالتأكيد. فهمت الآن هذه الطريقة في النظر. فالسمات الشخصية شيء يُدرَك. والشيء المدرَك لا يمكن أن يكون هو الحضور الواعي ...
- وبالمثل نحن لا نستطيع أن نتبين فيه أي انفصال أو انقسام، فهو يلوح كوحدة تامة الاكتمال. لا يمكن أن تأخذ منها شيئا أو أن تضيف إليها شيئا. ولذا إذا تساءلنا هل الحضور الواعي محدود أم لا؟ فلا بد أن نجيب بالنفي أيضا لأن كل حَدٍ سيكون واقعة موضوعية لا بد أن يكون وراءها شيء آخر يدركها. أي، بعبارة أخرى، إن الوعي يجب أن يكون قائما عند تعيين أي حد. وعليه، فإن الوعي ذاته لا يمكن أن يكون محدودا ...
- وهل هو فانٍ؟ وهو سؤال هام لأن الخوف من الموت هو أساس كل خوف آخر ...
- وهنا أيضا لا يمكن تحديد نقطة في الزمن نقول عندها هنا بدأ الوعي، وذلك ببساطة لأن هذه النقطة ستكون بالمثل واقعة موضوعية يجب أن يكون الوعي قائما آنذاك ليحددها. مما يعني أن الوعي لا يدخل تيار الزمن أصلا ...
- لكن إذا كنا لا ندخل تيار الزمن أصلا، فهذا معناه أن لا وجود للموت!
- هذا الكيان البدني الذهني يظهر في لحظة ويختفي في لحظة أخرى، في هذا الزمن المتتالي، لكن الحضور الواعي قائم في الحاضر الخالد أبداً، في الزمن السرمدي. الكيان البدني الذهني يظهر لفترة ثم يختفي كما تظهر الموجة وتختفي على سطح البحر. أما الماء ذاته – جوهر الموجة والبحر – فإنه لا يظهر ولا يختفي ...

سارا صامتين برهة ثم قال ''محب'':

- هذا الشعور البسيط بالوجود المنفتح على الحاضر الأبدي والسابق على أي فكرة هو طبيعتنا الحقيقية. وهذه الحقيقة قادرة – إن نحن عايناها معاينة مباشرة – على طي صفحة الشقاء ...

ران الصمت من جديد ... ''الصمت الذي تنبع منه الأصوات وفيه تتلاشى'' ...

الأشجار العريقة الباسقة توحي بالجلال، والعشب يزهو بخضرته اليانعة هذا الصباح. كان هناك طائر أسود صغير يترنم بنغم عذب غير مألوف. هل هو من الطيور المهاجرة؟

اتجها إلى مقعد ظليل في ركن هادئ فقال ''راجي'':

- أصدقك القول إنني أشعر بشيء غامض يتخلق، بصورة غائمة ينيرها برق خاطف ثم لا تلبث أن تغيم قبل أن أحيط بمعالمها كلها. لكن ذلك يتركك في حيرة إلى حد ما، لأنك تريد أن ترى، وأن تعاين معاينة مباشرة ...
- دعنا إذن نقوم بهذه التجربة البسيطة:

استرح في جلستك وأغلق عينيك وتنفس بشكل عميق آخذاً الهواء ببطء من الفضاء المحيط بك، الذي هو الكون بأسره. وحاول أن تتتبع مَسرى الهواء وهو يتخلل كل نواحي الجسد ... كأن الكون يسري داخلك وأنت تجيبه بما تخرجه من زفير ... تابع هذه الحركة الداخلة والخارجة صارفا كل انتباهك إليها. بعد قليل لن يبقى هناك سوى هذه الحركة ... لن يبقى هناك سوى النَفَس الداخل والخارج ...

الآن افتح عينيك ببطء وانظر إلى السماء وإلى هذا السرب من الطيور المهاجرة الذي يرسم الآن بحركته الجماعية تشكيلا بديعا ... الطيور تتجمع وتتباعد ... أنت ترى الطيور، تراقب الطيور، ولكنك لست هذه الطيور الراقصة. ما المشهد إلا انطباع سجل على صفحة الوعي. ما يُسَجَّل يأتي

ويروح. ولكن الوعي ذاته لا يأتي أو يروح. ما تراه محدود ومتناه، أما الفضاء الذي يظهر فيه فليس محدودا أو متناهيا ...

والآن وجه انتباهك إلى إحساس بدني ما. قد يكون مثلا إحساسك بحرارة الشمس على يدك. لو حركت يدك الآن إلى موقع ظليل ستلاحظ أن هذا الإحساس البدني يمر أيضا كمرور هذه الطيور المهاجرة في الأفق البعيد ... الإحساس البدني يتناءى، ولكن الوعي باقٍ كما هو دون تغيير ... أنت لست، إذن، هذا الإحساس البدني. أنت الوعي الذي سُجل على صفحته هذا الإحساس. هذا الإحساس محدود ومتناه، أما الفضاء الذي يظهر فيه فليس محدودا أو متناهيا ...

والآن فكر في شيء ما. بل لعلك غير محتاج لأن تفكر في شيء محدد إذ يكفي أن تراقب تيار الأفكار المتواترة التي لا تفتأ تتوارد على ذهنك ... ستلاحظ أيضاً أن الأفكار تأتي وتروح كالإدراك الحسي والإحساس البدني. ولكنك أنت لا تأتي أو تروح. أنت الشاهد الأبدي على كل ذلك ولكنك غير متورط فيه. هذه الأفكار محدودة ومتناهية، أما الفضاء الذي تظهر فيه فليس محدودا أو متناهيا ...

ألا تلاحظ الآن أننا نختبر ما نتصور أنه جسدنا – أي إحساساتنا البدنية – وما نتصور أنه ذهننا – أي أفكارنا – وما نتصور أنه العالم الخارجي – أي ما تدلنا عليه إدراكاتنا الحسية – بنفس الطريقة؟ أي أننا ندركها جميعا كموضوعات عينية. أفلا يعني ذلك أن الجسم والذهن ليسا هما الذات الواعية بالعالم بل هما أيضا موضوعان للتجربة، شأنهما شأن العالم نفسه؟

أنت لست، إذن، إدراكاتك الحسية لأنك تعي بها، ولست أحاسيسك البدنية لأنك تعي بها، ولست أفكارك لأنك تعي بها. أنت لست جسمك أو ذهنك لأنك تعي بهما. أنت لست كل هذا. فمن أنت إذن؟

أنت العنصر الثابت غير المتحول في كل هذه التجارب والقاسم المشترك بينها. الإدراكات الحسية تروح وتجئ وأنت واع بها، والأحاسيس البدنية تروح وتجئ وأنت واع بها، والأفكار تروج وتجئ وأنت واع بها. كل تلك الأشياء التي تدركها محدودة ومتناهية، أما الفضاء الذي تظهر فيه فليس محدودا أو متناهيا. وذلك الفضاء هو القاسم المشترك الثابت بين كل هذه الأحوال ...

وهذا الفضاء هو وعيك الشاهد على كل ذلك دون أن يتورط فيه. إنه الحضور الواعي وما أنت إلا هذا الحضور الواعي ...

جلس ''راجي'' مسترخيا على المقعد الخشبي مستغرقا فيما إحالته إليه هذه ''التجربة''. يسرى في وجدانه الآن سلام عميق غاص فيه بكليته. أغلق عينيه دالفاً إلى هذا الحضور الواعي. ضجيج المدينة البعيد يسري في هذا السلام دون أن يمسه. حتى أفكاره ذاتها تروح وتجئ دون أن تمس الخلفية التي تظهر إزاءها. هو ليس هذه الأصوات، ليس هذا الخدر الذي يسري الآن في أوصاله، ليس هذه الأفكار. كأنما كل ذلك أسماك صغيرة تسبح في نهر فسيح. هل تعكر هذه الأسماك صفو النهر؟ أم هو يحتويها في حنو وحدب وهو يمضي منسابا في سكينة مطمئنة ...

شعر ''راجي'' أنه يحتاج إلى تَمَثُّل كل ما تبادلاه من حديث وتأمل ما مر به هذا الصباح فاقترح على صديقه أن يتمشيا قليلا ...

خرج الصديقان من الحديقة وقادتهما خطواتهما، في طريق اعتادت عليه، إلى النيل غير البعيد. ما أجمل هذه الفسحة وذاك الامتداد في مدينتهما المكتظة، وما أروع هذا الانسياب المطمئن في جوها الصاخب ...

وصلا إلى الجسر الذي سيسلكه ''راجي'' فاستأذن ''محب'' مودعا، على وعد بأن يلتقيا مساء الغد في بيت صديقه.

شعر ''راجي'' بأن عليه أن يُقبل بكليته على هذا التقصي، مدركا أن فيه حياته أو موته بالمعنى الحرفي. وجال بخاطره قول شكسبير الشهير ''أن تكون أو لا تكون هذا هو السؤال''. فهل يستطيع أن يكون حقا دون أن يعرف من هو؟ وشعر أنه يفهم ذلك القول في ضوء جديد: أن تعرف من أنت حقا فتكون أو ألا تعرف من أنت فلا تكون، هذا هو السؤال. هذا هو بيت القصيد.

أما ''محب'' فكان يحدس، بحكم أنه ''مر من هنا ذات يوم''، ما يختلج الآن بصدر ''راجي''. يعرف أن صديقه قد حقق، بمعنى ما، كشفا هاما حينما لَمَح، ولو لوهلة خاطفة، طبيعته الحقيقية. ويعرف أن تلك اللحظة السحرية أشبه بميلاد جديد. لكنه يعرف أيضا أن هذا ''المذاق'' لئن ظل ماثلا في الفهم كبوصلة مُوَجِّهة بدرجات متفاوتة من الوضوح والقوة في البداية، فإن نمط تأكيد الأنا – أي تصور أننا كيان شخصي فان ومحدود يسعى إلى تحقيق ما يراه إيجابيا وتجنب ما يراه سلبيا وفقا لما عرفه في الماضي، وهو كيان يمثل أقوى صور تَشَكُّلِنا – سرعان ما سيطفو في الأغلب على السطح مجددا. وسيشعر ''راجي'' أن كشفه قد تبدد وسيحاول مستميتا أن يستعيد لحظات السلام والفرح التي عاشها والتي يلفاها تتسرب الآن من بين أصابعه وهو عاجز عن الإمساك بها. وسيتعامل ''راجي'' على الأرجح مع هذا الكشف بنفس طريقة نمط تأكيد الأنا، أي كاكتشاف حققه هو – ذلك الكيان الشخصي – ويريد أن يوظفه في وجهة نظره التي يواجه بها العالم. كما يريد أن يستعيد ما حققه له من سكينة مطمئنة. هو لم يعرف بعد تماما أن ذلك الكشف هو حقيقته ذاتها، وأن الحضور الواعي لا يمكن أن يُمتلك أو يُوظف لأنه ليس، بكل بساطة، ''شيئا''. هو من يعي كل الأشياء. وأنه، ''راجي''، ليس تلك الأنا، بل الوعي الذي يدركها ...

غدا سيقابل ''راجي'' وسيجده مقبلا يسعى إلى ذات المذاق، الذي هو تعبير عن طبيعته الباطنة ذاتها. وسيجده أيضا محملا بأسئلة كثيرة. ذلك أن تغيير المنظور على هذا النحو، أي المنظور الذي يرى الإنسان نفسه من خلاله، يشكل انقلابا كاملا في رؤية كل شيء ...

ولذا فإن هذه الرؤية لن تتضح أبعادها كلها دفعة واحدة. لكن بمقدوره، إن شاء، أن يتقبلها باعتبارها فرضية قابلة للاختبار في حياته هو، في تجربته المباشرة، ويرى هل تمثل شرحا معقولا لها أم لا. وقد يكتشف عندئذ أنه إزاء رحلة بحث واكتشاف وإبداع وتطور تتضح فيها تباعا شتى جوانب هذه الرؤية بقدر التقدم في تأملها ...

• • •

توجه ''محب'' إلى منزل ''راجي'' الذي يقع في حي الحسين القديم. مجرد استحضار الحي بعمارته المميزة يحيله إلى عالم ساحر غامض. ما هذه الصلة العجيبة بين عمارته الإسلامية وعالمنا الداخلي؟ وما هو سر هذه العمارة – الكامن في الأبعاد والنسب والأشكال – الذي يردنا إلى سر الوجود الكامن فينا؟ يستطيع أن يتجول في هذه الشوارع ساعات طوالا يعب من سحرها الذي يقاوم التلوث والازدحام والصخب. يكفي أن يقف في صحن الأزهر المكشوف ويتطلع لأعلى كي تعتريه، في كل مرة، تلك الرعدة المتجددة. فهذه النظرة تقذفه فجأة في قلب السماء. هكذا بلا أي عازل أو وسيط. كأن الصحن يقتطع من سماء المدينة، التي تحجبها المباني المتطاولة، تلك القطعة التي نُقِّيَت من الأشكال والصور والتي تنفتح على فضاء لانهائي. فيشعر كأنه جسم سابح في ذلك الفضاء الذي لا تحده حدود. ويدرك وحدته بهذا الكون البديع فتتلاشى حدود الجسم ولا يبقى سوى اللامحدود.

أَحب هذه الشوارع رغم ما أصابها من تدهور مدمر. عَشق الأحجار المصقولة والألوان الحائلة والزخارف المطلة من زمن غابر. هل أوحت للناس دوما بهذا الجلال؟

في منزل قديم يقاوم آثار الزمن بفضل ما يبذله أصحابه من عناية، اتخذ ''راجي''، على سطح الدار، غرفة له يتفرغ فيها لقراءاته وللقاء أصدقائه. الغرفة مفروشة ببساطة وجمال. أرائك خفيضة بحذاء الجدران وبسط قديمة. تنفتح الغرفة على سطح صغير يشرف على الحي القديم من مطل فريد. من هنا ترى مآذن الأزهر والحسين ويتنامى إلى سمعك وجيبٌ جماعي بعيد تمتزج فيه أصوات المؤذنين والمارة والسيارات وتصلك، إذا هبت نسمات شرقية، روائح محال العطارة.

جلسا، كما يحبان أحيانا، على وسادتين على الأرض وأسندا ظهريهما إلى أريكتين متقابلتين.

- ما برحتُ أفكر منذ الأمس في ذلك الاكتشاف ...
- كل شيء يبدأ وينتهي بما نعتقد أنه حقيقتنا ...
- آخر ما كنت أتخيله!
- كأنها إفاقة من حلم، أليس كذلك؟

اعتدل ''راجي'' في جلسته ثم قال كمن يتهيأ لاعتراف ما:

- لقد أحسست، في تجربة التأمل، أنني عرفت حقا حقيقتي وشعرت بسلام عميق يخيل لي أنه ينتمي إلى بُعد آخر. ولكن هذا الشعور ما لبث أن تبدد وما برحت أحاول استعادته دون جدوى ...

ابتسم ''محب'' وسأل صديقه:

- وكيف تبدد؟
- مثلما جاء هذا الشعور في لحظة خاطفة اختفى أيضا في لحظة خاطفة!
- اِحك لي ما حدث!
- كنت قد أحسست للحظة أنني عرفت حقيقتي. كنت سعيدا بهذا الكشف. ولكنني ما لبثت أن وجدت نفسي، دون أن أدري كيف، وكأنني قُذفت خارج المدار الذي كنت أحلق فيه لأجدني كمن سقط على الأرض من علو شاهق ...
- وماذا كان رد فعلك؟
- أول ما شعرت به هو الإحباط. فقد كنت أتصور أنني حققت إنجازا ما، ولكنني وجدت نفسي مرة أخرى كما كنت من قبل أكابد ذلك الإحباط الأبدي، لكنه هذه المرة، وفي مفارقة غريبة، كان أقل وطأة لأنني عرفت أن هناك شيئا سواه، وكذلك أشد مرارة لأنني كنت قد ذقت حلاوة السلام. لقد رجعت إذن إلى حالة عدم

الاكتمال الوجودي التي تحدثنا عنها بالأمس. وما برحت أحاول استعادة ذلك الشعور الساحر، بلا جدوى!

- عند وجود المعاناة، ما نفعله عادةً هو التوحد بهذه المعاناة ومحاولة التخلص منها ...
- وماذا تقصد بالتوحد بالمعاناة؟ وهل هناك من يريد أن يتوحد بمعاناته؟
- سبب المعاناة الوحيد هو تصور أن هناك كيانا يعاني، وأننا هذا الكيان. ألا ننظر عادة إلى أنفسنا على أننا ''شيء'' في نهاية المطاف متغافلين عن ذاتنا الحقيقية، الحضور الواعي. وهذا التصور يتجدد بشكل لاشعوري في البداية دون انتباه منا، بحكم التشكل السابق. أي أن المعاناة لم تكن لتنشأ أصلا إلا لأن هذا الاعتقاد، الذي توارى لفاصل زمني معين، قد أطل برأسه من جديد ...
- وما الحل عندئذ؟
- يكفي عند وجود المعاناة أن نظل ماكثين في وجودنا الواعي وأن نراقب منه حالة المعاناة تلك. وعندئذ لن تلبث مكونات تلك المعاناة – التي تتخذ الآن صورة ''الأنا'' – أن تنحل إلى عناصرها الأولية: إلى الأفكار والأحاسيس البدنية والإدراكات الحسية. وإذا تنبهنا إلى أن تلك مجرد أشياء على سطح الوعي، فنظرنا إليها من منظور الحضور الواعي، لن نلبث أن نلاحظ أنها سرعان ما ستتلاشى من تلقاء ذاتها دون أي تدخل منا. لأن انتباهنا في هذه الحالة يكون قد تحول من الكيان الموهوم الذي يعاني إلى الشاهد النهائي الذي يراقب هذا الكيان ...
- وكيف يمكنني مراقبة كيان موهوم؟
- أنت ستراقب في الحقيقة ما يتجلى لك في تجربتك. أي ستراقب العناصر التي يتألف منها، في نهاية المطاف، هذا الكيان: أحاسيسك البدنية، وما قد يقترن بها من مشاعر، وأفكارك. أي أنك لن تتورط في المشهد كطرف فيه. لأن الكيان الموهوم – أي تلك ''الأنا'' – ما هو إلا فكرة أُسقطت على تلك الأحاسيس والمشاعر

والأفكار. فكرة تستملك تلك الأحاسيس والمشاعر والأفكار. وهذا الاستملاك النفسي هو ما نعنيه عندما نتحدث عن التوحد بالمعاناة. أي أننا نستملك، عن طريق مفهوم الأنا، تلك الأحاسيس والمشاعر والأفكار التي تظهر على سطح الوعي. وبدلا من أن نرى تلك الأحاسيس والمشاعر والأفكار مجرد وقائع تحدث على سطح الوعي نتخيل أنها تحدث لكيان محدد اختلقناه اختلاقا. هذا هو سبب الألم. وطريق الخروج هنا هو مراقبة الهيكل، إن شئت، الذي تَلبَّسَه هذا المفهوم. أي مراقبة تلك الأحاسيس والمشاعر والأفكار. وعندما نرى أنها تمر كمر السحاب في الأفق نكون قد أخذنا في تفكيك هذا المفهوم لا على مستوى الفهم فحسب بل أيضا على مستوى الإحساس البدني والشعور، ونكون قد استقرينا بدرجات تتزايد في منظور الرائي النهائي، أو الحضور الواعي، الذي هو طبيعتنا الحقيقية ...

- لا أعتقد أن الأمر يمكن أن يكون بهذه السهولة؟

- مصدر الصعوبة هو أن رد فعلنا التلقائي، عند وجود الألم النفسي، هو المسارعة إلى تسكينه وتصفيته. وهذا بالطبع أمر أكثر من مشروع. لكننا إذ نفعل ذلك نلجأ عادة إلى ذات الأداة التي سببته أصلا، أي إلى تدخل ذلك الكيان الذي نتصور أنه مصدر هويتنا، مصدر الفعل – ''الأنا'' – في حين أنه ليس سوى شيء أخر يظهر على شاشة الحضور الواعي. أي إن مصدر الصعوبة هو أننا لا نستطيع – بعد – أن نقاوم إغراء التدخل ''الأناوي''(*) – وأعذرني على هذا التعبير الذي قد يكون جديدا على أذنيك. يكفي فقط، كما قلتُ لك توا، أن تراقب – من موقف الحضور الواعي – ذلك الألم النفسي، الذي يتجلى دوما كأفكار وأحاسيس وإدراكات، دون محاولة تدخل أناوي إذن. وسرعان ما ستتبين، إن أنت أتحتَ لهذه الطريقة في التصرف فرصة التحقق، أن ذلك الألم أو الإحباط قد اختفى تماما حتى دون أن تلاحظ أنت

(*) أُشتقت هذه الصفة – التي تعني الشيء المنسوب إلى الأنا – من الناحية اللغوية، قياسا على الصفات المشتقة من كلمات مثل سينا وإسنا ويافا إذ نقول سيناوي وإسناوي ويافاوي. وهي تناظر الكلمتين الإنجليزيتين egotist و egotistic. ومدلول الكلمة مختلف بالطبع عن مدلول كلمة أناني التي تعني تفضيل الأنا، egoist.

نفسك ذلك. وبعد برهة، ستتساءل حتى: أين ذهب هذا الشعور؟ لقد ذهب إلى الفضاء الذي يصدر منه كل شيء والذي فيه ينحل كل شيء. وتبقى أنت، ذلك الفضاء نفسه، أو الحضور الواعي، شاهدا على ذلك. أما التوحد الأناوي بهذا الألم أو الإحباط فهو الذي يستبقيه ويديمه. ولاحظ أنني لا أدعوك لتجاهله. أي لا أدعوك للنظر إليه بطرف خفي وأنت متوحد مع شعور بالرفض والاحتجاج. كلا، بل أدعوك لمراقبته هو وكذلك شعورك بالرفض والاحتجاج الصامت ورغبتك الدفينة في تغيير ''الوضع''. لا أدعوك لأن تتحمل مكرها وضعاً غير مرغوب، بل لمجرد مراقبة كل ذلك. وأعذرني إن كنت قد أطلت عليك أو أسهبت في هذه النقطة. فلم أكن لأفعل ذلك لولا أنني تبينت من تجربتي الواقعية مدى فعالية هذه الطريقة في النظر. فعاليتها لا في التغلب على ما قد يمر بنا من ألم نفسي أو إحباط فحسب، بل أيضا في جعلنا نتعرف شيئا فشيئا على طبيعتنا الحقيقية، الحضور الواعي. فعاليتها في إخراجنا من ربقة الأنا. وأذكرك بأنني عندما أتحدث عن الأنا لا أتحدث عن كيان حقيقي موجود، بل عن تصور واعتقاد يستملك الإدراكات الحسية والأحاسيس البدنية والأفكار، أو يتوحد معها ويخلق منها كيانا موهوما ...

- تتحدث كما لو كان الأمر يتعلق بوصفة مجربة!
- بالفعل . والتجربة تدل على أنها لا تفشل أبداً.
- لا تفشل أبداً! هل هناك شيء لا يفشل أبداً!
- لا تفشل لأنها تقول ببساطة إن الألم يزول عند تبين أن المتألم نفسه – سبب الألم – غير موجود! وكيف نتبين أن المتألم نفسه غير موجود؟ عندما ننتبه للخطأ الكامن في تصور أننا شيء في حين أننا الوعي الذي يرى هذا الشيء. عندما نكف عن تجاهل ذاتنا الحقيقية: الحضور الواعي ...

ضحك ''راجي'' ضحكة صافية ثم قال:

- لا أعتقد أن ذلك يمكن أن ينسحب على الألم البدني هو الآخر!
- كلا بالطبع نحن نتحدث هنا عن الألم النفسي، عن الإحباط والقلق والخوف والغضب. أما الألم البدني فهو حقيقة من حقائق الطبيعة له وظيفة يؤديها. فهو يشير إلى خلل يحتاج إلى علاج. لكن قد يخفف منه ألا نضيف إليه ألما نفسيا مصدره الاحتجاج والمقارنة!

سكت ''محب'' برهة ثم قال:

- عندما ندرك أننا الوجود الواعي الذي يراقب حالة المعاناة هذه سنتذوق على الفور طعم حالة خالية من التوتر، حالة سلام لا سبب موضوعياً محدداً له. سنتذوق إحساسا منعشا بالحرية. وسندرك عندئذ أن طبيعتنا الحقيقية لها وجه ثالث: الوجود، والوعي – أو ما أطلقنا عليه اسم الوجود الواعي أو الحضور الواعي – ثم الحالة الخالية من التوتر: السلام أو السعادة. أي أن ذاتنا الحقيقية هي ما نبحث عنه في الواقع طول الوقت بينما هي أقرب إلينا من حبل الوريد ...

ظل ''راجي'' يستمع بكل وجدانه، ولم يبد أن لديه، في هذه اللحظة، رغبة في الحديث، مما شجع صديقه على الاسترسال:

- هذه المعاناة ذاتها هي التي تدفعنا إلى البحث عن سبيل الخلاص الحقيقي، وهي التي تدفعنا إلى هذا الحديث الآن. وما هذا الإحباط المتكرر إلا حيلة من الوجود تدفعنا إلى البحث عن سبب عدم الاكتمال الوجودي هذا، وعن مصدر الاكتمال الحقيقي ...

بدأت أسارير ''راجي'' تنبسط موشية بالارتياح، كأنما أحس أن لمعاناته معنى بل أنها مُرشِدُه ومُوجِّهُه، بشكل ما.

- والمهم في تجربة السلام العميق التي خَبرتَها ليس وقعها على صعيد الشعور والإحساس، بل أنها تنبهنا إلى ذاتنا الحقيقية وتدعونا إلى استكشافها والتعرف عليها ... وما

محاولتك استعادة حالة السلام العميق التي تحدثت عنها إلا نداء من طبيعتك الحقيقية لاستكمال البحث. ما هي إلا نداء من المطلق . فدعنا إذن نستجيب لندائه. دعنا نعود إلى ذلك الحضور الواعي. دعنا نقوم بهذه التجربة الجديدة ...

سَوَّى ''محب'' جلسته على الوسادة ثم قال:

- اعتدل الآن في جلستك واغلق عينيك وتنفس بعمق وهدوء ...

استجاب ''راجي'' لهذه التجربة متسائلا إلى أين ستقوده اليوم. وما أن بدأ نفسه ينتظم حتى أخذت سكينة هادئة تسري في نفسه ...

هِب كل أفكارك للوعي الذي تظهر فيه ... هِب له شعورك بافتقاد تجربتك ...

في لحظة واحدة، شعر ''راجي'' أنه ارتد إلى ذاته ...

هذا الوعي الذي يظهر فيه شعورك هو ذاته السلام العميق ... هذا السلام العميق ليس ذكرى تجربة مرت، بل هو طبيعتك ذاتها. طبيعتك الحية في الحاضر الدائم. فكيف يمكن أن تفتقده؟ التجربة تأتي وتروح، ولكن الوعي الذي تظهر فيه لا يأتي ولا يروح. وهذا الشعور المتجدد بالسلام لا تحتاج لأن تختزنه في الذاكرة. لا تحتاج لأن تستبقيه أو لأن تستعيده. فهو حاضر دوما كحضور واع يحتضن كل تجربة وكل فكرة ...

ساد صمت كامل لا يقطعه سوى أصوات تأتي من بعيد. كل شيء بدا سابحا في هذا السلام ...

ولننظر الآن لتجربتنا من زاوية جديدة. انصت إلى تلك الأصوات المتسربة من بعيد. ليس هناك صوت يُسمع هناك وكائن يَسمع هنا، كل ما هناك في الحقيقة هو سمع فحسب. تلك هي تجربتنا الفعلية. لكن بعد ذلك يأتي التفسير: صوت يتردد هناك وكائن يسمع هنا. هذا هو التفسير البَعدي ...

وقت الإدراك نفسه يكون عمل الذهن معلقا بشكل ما، تظهر الفكرة أو الإحساس البدني أو الإدراك الحسي بغتة، ثم تأتي الأنا – ذلك الاعتقاد الذهني – كواقعة لاحقة للحدث لتستملكه. الذهن يقسم الإدراك إلى شيء مدرك وأنا مدركة، لكن في آنية الإدراك نفسه، لا توجد أي أنا ...

فلننصت معا الآن لصوت هذا الطائر. هناك فقط هذا السمع في آنية التجربة قبل ظهور أي تفسير. ولو تساءلنا هل هناك، في تجربة السمع، مسافة بيننا وبين الصوت، لتبيننا أن لا مسافة على الإطلاق بين السامع والمسموع. هناك فقط تجربة السمع. وهذا السمع يحدث على مسافة صفر منك. مهما كان الصوت قريبا أو بعيدا هو يحدث على مسافة صفر من وعيك. ولو فتحت عينيك الآن ونظرت حولك فكل ما سيتاح لوعيك هو الرؤية. لا مرئي هناك وراءٍ هنا في آنية التجربة. ومهما كانت الأشياء التي تراها قريبة أو بعيدة في الواقع الظاهري فإنها، في تجربة الرؤية، تقع على مسافة صفر منك. لا مسافة بينها وبين وعيك ...

أحس ''راجي'' بأنه مجرد وعي تظهر فيه هذه التجربة ...

والآن تأمل أحاسيسك البدنية. هل هناك مسافة تفصلها عن وعيك؟ كلا، إنها تحدث هي أيضا على مسافة صفر منك. وكذلك كل أفكارك، فهي تُدرَك على مسافة صفر من وعيك. وحتى لو ظهرت فكرة تقول إن هناك مراقب يراقب هذه الأفكار، فإن هذه الفكرة نفسها تظهر على مسافة صفر من وعيك. ليس هناك مُدرِك ومُدرَك. هناك الإدراك. هناك حقيقة واحدة لا انفصال فيها. وما أنت إلا تمامية هذه التجربة. ما أنت إلا تمامية الوعي.

ساد صمت احتاجت هذه الكلمات أن تسكن فيه وتستقر. وكلما طال الصمت أحسا بأن تأثير الكلمات يزداد نفاذا. الوعي يتعرف على نفسه.

شعر ''راجي'' بوحدته مع كل ما يظهر في تجربته. وتساءل أليست هذه هي ذات القربى الحميمة مع الكون التي يعاينها عندما يرى حمرة الشفق منبثة في السحب أو عندما يُطالع سماءً لا يُسْبَر عمقُها متلألئة بالنجوم؟ أليس هذا هو الاكتمال الغامض المرتجى؟ أليس هذا هو الإياب إلى مقر اليقين؟ هل هذا هو الاكتمال؟

اعتدل الصديقان في جلستيهما واقترح ''راجي'' أن يُعدَ كوبين من الياسمين، اختراعه المسجل.

خرجا إلى سطح الدار. في الأفق يلوح هلال شهر جديد. ونسمات أول الليل تعبق جو السطح بعطر زهور الياسمين الكثيفة التي يعتني بها ''راجي''. ويشتد الصخب الآتي من بعيد موشياً بأن الحي العريق يتهيأ لاستقبال الليل بعد انحسار حرارة النهار.

جلسا على مقعدين متقابلين. فوق مائدة صغيرة بينهما، وضع ''راجي'' بضعة زهور من الياسمين في كوبين وصب فوقها ماء ساخنا، ثم قال:

- لم أنتبه من قبل إلى وحدة تجربتنا على هذا النحو في آنية اللحظة ...
- المفاهيم والتصورات حاجز بيننا وبين التجربة الفعلية ...
- نعم، لأننا في العادة نتصور أننا هنا في داخل هذا الحيز من الجلد، داخل تلك الحدود تقع هويتنا، أما العالم فقائم هناك في الخارج. لكن مع هذا المنظور يبدو كما لو أن العالم هو الذي يظهر في وعينا ...
- ليس العالم وحده، بل وذلك الكيان المحصور داخل هذا الحيز من الجلد، كما وصفته. كل ذلك يظهر في وعينا. وليس ذلك فقط، بل لما كان كل ما يظهر في فضاء الوعي زائل متغير والحضور ذاته باق لا يتبدل، أمكننا أن نعتبره هو الوجود الوحيد لأنه لا يعتمد في وجوده على شيء سواه.
- وتلك الأشياء التي تظهر في فضاء الوعي، أليست موجودة حتى وإن كانت زائلة؟

- هذه الأشياء ليس لها وجود قائم بذاته، بل تعتمد في وجودها على الوعي الذي لا يشكل الحقيقة التي تدركها فحسب، بل والذي المادة التي تتبدى فيها ...
- هذه مسألة تحتاج إلى شرح!
- في التجربة التي قمنا بها توا، هل لاحظت أنه لم تكن هناك أي مسافة بين الوعي وبين الإدراكات الحسية والأحاسيس البدنية والأفكار؟
- بالفعل. كل ذلك يقع على مسافة صفر من الوعي ...
- وهل غياب المسافة يعني أنهما ملتصقان مثلا؟ هل هناك موضع ما تنتهي فيه الإدراكات الحسية أو الأحاسيس البدينة أو الأفكار ويبدأ الوعي؟
- لا أستطيع أن أتبين أي حاجز بينها ...
- إذا كنت لا تتبين أي حاجز بينهما، هل نستطيع أن نقول إن هذا في الخارج وذاك في الداخل؟
- كلا ... يبدو أننا إزاء تجربة واحدة ...
- بالضبط. فأنت ترى الآن هذا البساط، فهل تستطيع، في تجربتك لهذا الإدراك الحسي، أن تقول أين ينتهي البساط وأين يبدأ النظر. وأنت تلمس الآن الأرض بجسمك. فلو أغلقت عينيك هل تستطيع، في وعيك بهذا الإحساس البدني، أن تقول أين ينتهي الجسم وأين تبدأ الأرض؟ ولو قلت لك كلمة ''الحكمة'' مثلا، هل تستطيع، في وعيك بهذه الفكرة، أن تقول أين تنتهي الفكرة وأين يبدأ إدراكك لها؟ هل هناك، في الإدراك الحسي والإحساس البدني والفكرة، داخل من جهة وخارج من جهة أخرى؟
- كلا، كل ذلك يبدو لي بالفعل كتجربة واحدة ...

- لا داخل فيها ولا خارج ... مما يعني أيضا، على عكس تصورنا الشائع، أن وعينا ليس شيئا موجودا داخل الكيان البدني الذهني ما دمنا ندرك هذا الكيان، وليس موجودا داخل العالم ما دمنا ندرك العالم، والأصح أن يقال إن كل ذلك – أي الكيان البدني الذهني والعالم – هما اللذان يوجدان داخل وعينا.

تمهل ''محب'' في حديثه، منتقلا إلى زاوية جديدة، فقال:

- وهل يمكن أن نتبين في تجربتنا الباطنية للأفكار أو الأحاسيس البدنية أو الإدراكات الحسية أي شيء غير الوعي؟ هل يوجد في الإدراكات الحسية والأحاسيس البدنية والأفكار شيء آخر غير الوعي؟
- لا أستطيع يا ''محب'' أن أتبين في كل ذلك شيئا آخر ...
- نعم إن كل ذلك مصنوع من مادة الوعي ذاتها، إذا جاز التعبير. قد تكون الأفكار أو الأحاسيس أو الإدراكات محدودة، لكن المادة المصنوعة منها، الوعي نفسه، غير محدودة ... إن وعينا يتجلى ككل ذلك. مثل ماء البحر الذي يتجلى على هيئة أمواج، أو مثل المداد الذي يتجلى على هيئة كلمات. فهل توجد الموجة بلا ماء، وهل ترسم الكلمة بلا مداد. وتجربتنا هي هذا العناق بين الجوهر والمظهر، بين المطلق والنسبي. أو قل إن تجربتنا هي عناق تمازج بين المطلق والنسبي ...

سكت ''محب'' برهة ثم أضاف:

- هي مجرد أنماط مختلفة يتعرف من خلالها الوعي على ذاته ...
- كيف؟
- مثل الماء الذي يتبدى في صور مختلفة. يتجمد فيصير ثلجا ويسيح فيصير سائلا ويغلي فيصير بخارا دون أن يفقد ماهيته في أي صورة من الصور. أو خذ مثلا الموجة وماء البحر. فالماء يتجلى في لحظة على هيئة موجة لها شكل معين دون أن تكون في أي لحظة شيئا غير الماء. قبل أن تظهر كانت ماء، وأثناء ظهورها تصبح ماء،

وبعد انحلالها تعود ماء. الماء يتجلى في لحظة ما على هيئة الموجة. هو عناق بين الماء والموجة، بين الجوهر والشكل. إن الوعي يتجلى على هيئة العالم، لكن دون أن يصبح للحظة واحدة شيئا آخر غير ذاته. ولذا نقول إن حقيقة الوعي هي حقيقة مضمون الوعي. المضمون يتجلى على سطح الوعي، والوعي يتجلى على هيئة المضمون. يتجلى كهذا الوجود الذي يدرك فيه ذاته. وأنت الوعي المطلق، جوهر كل شيء والمتجلي ككل شيء. أنت ببساطة تطل من كل شيء ...

اقترح ''راجي'' أن يعد كوبين من النعناع فوافق ''محب'' مرحبا:

- عظيم. سأقطف إذن الأوراق ولتسخن أنت الماء ...

عادا إلى مجلسهما ورائحة النعناع تضوع المكان والهلال يعلو في السماء. استأنف ''راجي'' الحوار قائلا:

- محب، احتاج لأن أتأمل مهلا ومليا هذا الذي انتهينا إليه توا. فما كدت أرى أن ذاتي الحقيقية هي غير ما أتصور، حتى يتبدى لي العالم كما لو كان داخلي، في وحدة غير مألوفة ...

- لقد رأينا أن تجربة الوعي لا داخل فيها ولا خارج، لكن الأنا تريد أن تستملك هذه الوعي فتحول وحدة التجربة إلى ثنائية بينها وبين العالم. وأصبح سوء الفهم هذا بالتكرار وبالتأييد الجماعي اعتقادا راسخا وأعمق صور التشكل. وفي اللحظة نفسها التي يتصور فيها الإنسان أنه شيء، التي تتصور فيها الذات أنها موضوع، ينشأ عدم الاكتمال الوجودي. وفي اللحظة نفسها التي ينشأ عدم الاكتمال الوجودي يبدأ السعي لتعويض هذا النقصان، بما تتصوره إيجابيا والابتعاد عما تتصوره سلبيا فيما أسميناه نمط تأكيد الأنا لنفسها. لكن كل هذه المحاولات مكتوب عليها الإخفاق، لأن السبب الحقيقي لعدم الاكتمال وهو التشبث بهذه الأنا ذاتها. وهكذا تستمر تلك المحاولات اليائسة بلا نهاية ...

- ألا يذكرك ذلك يا ''محب'' بأسطورة سيزيف. فكأن الأسطورة لم تبتكر إلا لتعبر عن هذا التكرار الأبدي الذي ليس منه مفر. لكن عسى أن يكون للأسطورة معي نهاية أخرى!

- لقد بدأت نهايتها السعيدة بالفعل! ولو عدنا إلى مسألة الانفصال لقلنا إن الأنا ''تقتطع'' من الوعي حيزا ما، هو الكيان البدني الذهني، وتستملكه وتتوحد به وتسقط عليه إحساسنا بالهوية، فتعتبره ذاتنا الحقيقية، وتعلق عليه لافتة تقول: ''هنا مقر الأنا''. لكن المرء لا يبرح يُصَادِف في طريقه شذرات ولمحات قد تنجح، إن التفت إليها بالعناية الواجبة، في دعوته للسير في الاتجاه العكسي من أجل تبديد سوء الفهم. وبقدر ما ينجح الفهم في خلع ''الأناوية'' عن شعورنا بالذات بقدر ما يخلع في الوقت نفسه ''الآخرية'' أو ''الغيرية'' عن العالم. وبقدر ما تزول صفات الشخصي والفاني والمحدود عن الذات، بقدر ما تسطع صفاتها كحقيقة لاشخصية وخالدة ولامحدودة. وبقدر ما يزول حاجز الانفصال الوهمي الذي رسمته الأنا بين الداخل والخارج، بقدر ما تُكتشف الوحدة الأصلية التي لم تغب لحظة واحدة إلا في الظاهر تحت تراكم الحجب، مثل تكاثف السحب الذي قد يحجب السماء لكنه لا يغيبها ...

اعتدل ''راجي'' في جلسته كأنما يتهيأ للانتقال إلى نقطة جديدة ثم قال:

- محب، لقد قلتَ – قبل تجربة التأمل الباطني التي قمنا بها توا – إن رغبتي في استعادة ذلك الشعور بالسلام كان ''نداء من المطلق''. هل كان هذا على سبيل التشجيع والطمأنة؟

- إذا استبعدنا الأفكار ذات الدور الوظيفي التي تمر بخاطرنا، كإشعال النار لتسخين الماء أو الابتعاد عن حرارتها تجنبا للاحتراق مثلا، يمكننا أن نقسم ما يمر بخاطرنا من الأفكار إلى نوعين. النوع الأول أفكار تصدر عن نمط تأكيد الأنا لنفسها، لوجودها. أي أفكار تحاول بها الأنا تكرار ما صنفته في الماضي على أنه إيجابي وتجنب ما صنفته

على أنه سلبي. أي إن كنتُ قد وجدتُ المتعة – الحسية أو النفسية – في شيء معين أردتُ أن أكرره متصورا أن يحقق لي السعادة. وإن كنتُ قد وجدتُ الألم في شيء معين أردتُ أن أتجنبه متصورا أنه يجلب لي المعاناة ...

- أليس ذلك شيئا طبيعيا تماما؟

- يكون شيئا طبيعيا حقا لو كان له دور وظيفي، كما في الأمثلة التي ذكرتها لك توا، أي مثلا إشعال النار لتسخين الماء. لكن نمط تأكيد الأنا هذا قائم على التكرار والاستملاك النفسي. إنه ''يبدو'' فقط شيئا طبيعيا لأنه سعي للتغلب على الشعور بعدم الاكتمال الوجودي. وكل ذلك يخفف من حدة هذا الشعور، إلى حين. هذه هي حياة معظم الناس. أليس كذلك؟

- بالفعل، حتى أننا لن نجافي الصواب إن قلنا إن هذا هو معنى الحياة ''الفعلي'' بالنسبة لمعظمنا. هذا البؤس الذي نراه حولنا ...

- أما النوع الثاني من الأفكار فيصدر عن طبيعتنا الحقيقية. عندما نسأم هذا التكرار العبثي الذي لا يخرجنا من البؤس، كما تقول – وتلك على أي حال هي حيلة الحضور الواعي كي يقودنا إليه – نبدأ في التطلع في اتجاه آخر يخرجنا من هذا المأزق. ذلك هو نداء المطلق. كل ما يقربنا إلى المطلق، أي إلى طبيعتنا الحقيقية، ينتمي إلى هذا النوع الثاني من الأفكار ...

اعتدل ''راجي'' في جلسته وقال:

- دعني اعترف لك يا ''محب'' أني لا أرتاح لاستخدام كلمة المطلق هذه. أنت تعرف أنها تحيل إلى مقولات اعتقادية كثيرة، وأخشى أن يكون ذلك مقدمة تمهد لمقولات من هذا النوع ...

- هذا النهج عرفاني كما ترى. وأقصد بكلمة عرفاني هنا المعرفة الباطنية العيانية المستمدة من التجربة المباشرة، على عكس كلمة ''معرفي'' التي يقصد بها عادة المعرفة الذهنية أو العقلية ...
- لكن مسألة المطلق تظل، مع ذلك، غير مريحة بشكل ما ...
- ما دمت قد ارتضيت الاستكشاف الحر، فلتعرض خشيتك هذه، أو عدم ارتياحك، على ما تقوله التجربة. ولنبدأ أولا بتعريف المطلق. ما هو الشيء الذي يمكن أن ينطبق عليه وصف المطلق في نظرك؟
- ألا يكون فيه شيء ينتمي للنسبي أي ألا يكون فيه شيء متغير وزائل، مثلا. ألا يحده حدٌ. ألا يعتمد في وجوده على شيء آخر سواه. أن يكون مكتفيا بذاته. أن يكون هو مصدر ذاته. أتصور أن هذه كلها صفات للمطلق، ألا تتفق معي في ذلك؟
- اتفق معك. ودعنا إذن نعرض هذه التعاريف على ما تقوله التجربة. نحن نتحدث بالطبع عن الوعي، عن الحضور الواعي، فدعني أسالك: هل في الوعي أي شيء ينتمي للنسبي، أي هل فيه شيء متغير أو زائل؟

أطرق ''راجي'' يفكر في السؤال مليا ثم قال:

- المتغير يحدث فيه وهو يدركه. هو قائم دوما خارج المتغير ...
- إنه الثابت الوحيد إذن وكل شيء عداه متحول. فهل يحده حدٌ؟
- كلا، لأن أي حدٍ يقوم سيكون هو وراءه يدركه. هو إذن لا حد له ...
- هل هو فانٍ مثلا؟ أي هل بدأ في لحظة ما من الزمن وينتهي في لحظة أخرى؟
- لست أدري حقا كيف أجيبك عن هذا السؤال يا ''محب'' ...

- حتى نتحدث عن لحظة ما في الزمن لا بد أن يكون الوعي قائما ليعي بها. إنه لا يبدأ إذن في لحظة ما أو ينتهي في لحظة أخرى. إنه لا يدخل تيار الزمن أصلا. أي أنه خالد. والآن دعني أسألك هل يعتمد الوعي على شيء آخر سواه؟

فكر ''راجي'' في السؤال ثم قال:

- هل كان الوعي سيوجد لو لم نكن نتحدث عنه الآن؟
- وهل الوعي مفهوم ما حتى يحضر إن نحن تحدثنا عنه ويختفي إن نحن نسيناه؟ أليس هو الذي يعي حضور المفهوم ويعي كذلك غياب المفهوم؟

استدرك ''راجي'' قائلا:

- بالفعل. دعني أصوغ سؤالي إذن بطريقة أخرى. ألا يعتمد الوعي على شيء آخر كي يدركه؟ ألا يعتمد على الحواس ليدرك العالم؟
- إذا كنت تحتاج إلى الحواس لتدرك العالم، فإن الإنسان لا يحتاج إليها ليدرك نفسه. فقد يفقد الإنسان حاسة البصر أو السمع، قد لا يرى الإنسان عندئذ العالم أو لا يسمعه. ولكنه يستطيع أن يدرك أنه لا يبصر أو يسمع. الوعي لا يحتاج للحواس كي ينير ذاته. فالوعي مكتف بذاته، فهو موجود في عدم وجود أي شيء آخر ...

واصل ''راجي'' تقصيه قائلا:

- وألا يعتمد الوعي على الفكر ليعي ذاته؟ هل يوجد الوعي في غياب الفكر؟ أفلا يكون معتمدا في وجوده إذن على الفكر؟
- ألا تلاحظ وأنت تراقب تيار الفكر أن الأفكار تتابع واحدة إثر الأخرى؟
- هذا ما ألاحظه بالفعل ...
- كي تتمايز الأفكار عن بعضها بعضا لا بد أن يفصل بينها فاصل ما، حتى لو كان بالغ الدقة أو القصر أو الضآلة، أليس كذلك؟

أطرق ''راجي'' مفكرا ثم رد كأنما يحدث نفسه:

- بالفعل!
- فما مادة هذا الفراغ؟
- ما هي؟
- هي الوعي بلا أي أفكار على الإطلاق ...
- اتفق معك في هذه النقطة. ولكن هل تكفي هذه اللحظات الخاطفة بين الأفكار لإقرار أن الوعي يوجد حتى في غياب الفكر؟
- من المؤكد أنها تكفي من الناحية المعرفية. فالأفكار ليست ضرورية للوجود. لكن إن كنت ترى تلك الفترات الفاصلة شديدة القصر فهناك مثلا فترة النوم العميق، أي تلك الفترة من النوم الخالية من الأحلام، أي من الأفكار ...
- لكننا لا ندرك أنها كانت خالية من الأفكار إلا عندما نستيقظ ...
- بالضبط، وعندئذ ندرك أن الوعي موجود في وجود الأفكار وفي غياب الأفكار. أي في وجود الذهن وفي غياب الذهن. ولو افترضت أن الوعي كان يغيب أثناء النوم العميق فكيف كان لنا أن نستيقظ أصلا وقد رأينا أنه مادة الإدراكات الحسية والأحاسيس البدنية والأفكار ذاتها، وهي كلها تنبعث من رقدتها لدى الاستيقاظ؟

صمت كلاهما برهة ثم قال ''راجي'' كأنه يحدث نفسه:

- الوعي إذن مكتف بذاته ...
- وهذا ما يجعلنا ننسب إليه صفة المطلق. ونحن لا نحيل هنا إلى أي مفهوم مجرد. بل إلى حقيقتنا ذاتها. إلى أعمق أعماق وجودنا.

سكت ''محب'' وبدا كما لو أن صديقه لم يقتنع تماما بمسألة المطلق، إذ قال:

- لكن يا ''محب'' من الناحية العملية، ما دمت قد ارتضيت ألا تحتكم إلا للتجربة المباشرة، ماذا يعني هذا بالضبط؟ جوهرنا هو المطلق ونحن أيضا هذا الكيان الظاهري الزائل الذي يتجلى فيه؟
- دعني أضرب لك مثلا أرجو أن يقرب المسألة ...

نظر ''محب'' في ساعته ثم قال:

- الساعة الآن العاشرة وست عشرة دقيقة وأربعون ثانية.

تطلع إليه ''راجي'' مندهشا لكن صديقه أكمل حديثه قائلا:

- الزمن ذاته يا ''راجي''، أقصد الزمن الوجودي، الزمن السرمدي، له صفة الخلود، أي صفة المطلق. والزمن السرمدي هو هذا ''الآن''، هذا الحاضر الخالد أبداً الذي لا يمكن، من جهة، سجنه في لحظة محددة – لأنك ما أن تتحدث عن هذا الحاضر أو ''الآن'' حتى يكون قد مر بالفعل – ولكنه يُعَد، من جهة أخرى، قوام كل ساعة ودقيقة وثانية. فلا يمكن أن يكون هناك زمن متتالي، أي زمن نسبي، في غياب الزمن المطلق ...
- أتابعك حتى الآن ...
- وما نحن إلا صورة أخرى للعلاقة بين الأبدية وتلك الدقائق والساعات والثواني. جوهرنا، أي الحضور الوعي، يناظر ذلك الزمن الوجودي المطلق، لكننا أيضا نتبدى على هيئة هذا المظهر المتحول. وعندما يسود نمط تأكيد الأنا لا نحيا إلا في الزمن الخطي المتتالي فنأخذ أنفسنا على أننا هذه الثواني المتسربة بغير عودة وننسى طبيعتنا المطلقة، ولذلك نعيش في خوف دائم من الفناء. أما عندما نعرف طبيعتنا الحقيقية فإننا – كحضور واعٍ – نعيش في الزمن المطلق، في ''الآن''، في الحاضر الخالد أبداً، دون أن يمنعك هذا من التعامل مع الزمن المتتالي في حدوده الوظيفية والعملية ...

استغرق ''راجي'' في التفكير لحظة ثم قال:

- لا موت هناك إذن!

- نعم. عندما تدرك أنك لست الساعات والدقائق التي تمر بلا رجعة بل الحضور الماثل أبداً، فإنك تدفع باب الخلود. أو الأدق أن يقال إنك تدرك عندئذ أنك لم تغادر الخلود لحظة واحدة برغم خوفك الذي لا داعي له من الموت ...

- يا لها من مفارقة عجيبة حقا!

- والمفارقة الأعجب أنك – حتى وإن كنت تعيش، أو تتصور أنك تعيش، في الزمن المتتالي فحسب – فإنك لم تغادر الزمن المطلق للحظة واحدة. كل ما في الأمر أنك تتغافل عنه فقط. أما هو فماثل دوما في خلفية المشهد، إن جاز التعبير ...

- أي أنني أنا المطلق أنسى نفسي في النسبي! ثم أتخيل أنني ذلك الكائن الفاني!

- نعم إن المسالة في الحقيقة لا تعدو أن تكون تخيلا! فأنت، فعليا، تعيش دوما في ''الآن'' في الحاضر الخالد أبدا، في الزمن المطلق، السابق على الزمن المتتالي، حتى لو كنت، بأفكارك، لا تعيش إلا في الماضي أو المستقبل. ومهما فكرتَ في الماضي أو المستقبل فلن تستطيع إلا أن تفكر فيهما في الحاضر! أنت لا تستطيع أن تخرج من الحاضر! أنت لا تستطيع أن تغادر المطلق! فأنت لا تعيش في الماضي أو المستقبل إلا ''بتخيل'' أنك تعيش في الماضي أو المستقبل. لكن حتى هذا التخيل لا يمكن أن يحدث إلا في الحاضر الدائم! ما يحول بينك وبين معايشة الحاضر الخالد ليس سوى الفكرة التي في ذهنك، ليس سوى التخيل ...

صمت كلاهما مجددا، ثم قال ''محب'':

- وهذا التخيل هو ما جعلنا – نحن ذلك الحضور الواعي – نتصور أننا ''أنا'' محدودة وفانية! لأنني لو سألتك هل تستطيع أن تسجن هذا الفضاء اللانهائي، فماذا ستقول؟

- مستحيل بالطبع أن تسجن الفضاء!

- بل يمكن! يمكن إذا ''تخيلت'' الفضاء على أنه كيان له أبعاد معينة. عندئذ يمكنك وضعه في حيز له أبعاد أكبر. هذا ما يجعل تصورك ''يبدو'' حقيقيا، لأنه المسألة ليست سوى تخيل في تخيل. ويصدق نفس الشيء على الزمن المطلق الذي ''نتخيل'' أنه مجرد دقائق وثوانٍ. ويصدق كذلك على الحضور الواعي الذي تظهر فيه الأنا المتوحدة بالكيان البدني الذهني التي تتخيل أنها مقر الهوية، أنها طبيعتك الحقيقية. وأنت تحتاج لتصور شيء غير موجود إلا بقوة التخيل كي تتوهم أنك شيء آخر غير حقيقتك، غير الحضور الواعي. بالضبط كما تتخيل أن الثواني هي الزمن المطلق وأن الفضاء الذي سجنته في صندوق هو الفضاء اللانهائي. ولكن قوة التخيل هذه لا تغير من واقع الأمر شيئا. هي تجعل الأمر ''يبدو'' – فقط ''يبدو'' – كما لو كان حقيقيا. إن الفضاء داخل الإناء ''يبدو'' محدودا. لكن الفضاء لم يُسجن في الحقيقة قط. فهو ذاته داخل الإناء وخارجه، بل هو الحيز الذي يظهر فيه الصندوق نفسه. غير أن التخيل ليس الشرط الكافي. بل يجب أن ''تصدق'' – أو أن تتظاهر على الأقل بتصديق – أن ما تتخيله حقيقي. أي يجب أن تصدق – أو تتظاهر بأنك تصدق – أن الفضاء هو ذلك الموجود داخل الصندوق، مثلما يفعل الحالم الذي لا يشك مطلقا في حقيقة حلمه، ما دام ظل يحلم ...

ظل ''راجي'' مستغرقا في تأمل هذه ''المفارقة العجيبة''، كما قال، وظل ''محب'' صامتا صمته المألوف قبل الانتقال إلى نقطة جديدة، إذ ما لبث أن قال:

- ولذا فإن ما نفعله هنا هو، بشكل ما، السير في الاتجاه العكسي. نفض غبار التصديق، ورؤية التخيل على أنه تخيل لا أكثر. والكف عن التظاهر بالتصديق. فالمسافة بينك وبين التحرر لا تكمن إلا في عدم تصديق أنك شيء محدود. وعندئذ ستظلَ تظهرَ، نعم، على سطح الوعي كصورة زائلة، لكن الفارق الوحيد هو أنك لن تصدق أن هذه الصورة هي طبيعتك الحقيقة. إنك لن تستيقظ ''من الحلم'' بل ستستيقظ ''للحلم'' ...

أطرق ''محب'' مفكرا، ثم قال:

- وما هذا التخيل والتصديق إلا اسم آخر للنسيان، ولذا كان الذكر هو باب العودة ...

شعر الصديقان أن حديثهما وصل إلى نقطة ختام. فاقترح ''محب'' على صديقة أن يتمشيا قليلا في الحي القديم. فاستجاب ''راجي'' مرحبا.

الطرقات ما زالت مزدحمة في هذه الساعة بهذا الحي الذي لا يعرف النوم. في المساء له مذاق مختلف. تزيح المدينة عنها حر النهار وتستقبل نسمات الليل بالسهر والسمر.

- كأننا يا ''محب'' في حلم إذن. ألم يكن شكسبير هو الذي قال ''لقد نسجنا من مادة الأحلام''؟
- نعم، ما أروع حدس المبدع الحقيقي! كأنه كان يشير إلى آلية التخيل والتصديق هذه. وكأنه كان يشير أيضا إلى أن العالم مصنوع من مادة الوعي، إذا جاز التعبير ...
- وهو الذي قال أيضا ''ما الحياة إلا مسرح كبير'' ...
- وهي حقاً مسرحية في ذهن الوعي. وحتى تكون المسرحية ناجحة لا بد أن ''يتخيل'' كل ممثل أنه الشخصية التي يمثلها، أليس كذلك؟
- هذا هو الشرط الجوهري للدراما الحقيقية. فلا بد أن ''تبدو'' المفاجآت حقيقية ولا بد أن ''تبدو'' الفواجع أيضا حقيقية وكذلك الضحكات ...
- لكن المشكلة تبدأ عندما لا يكتفي الممثل بتخيل الشخصية فقط بل يصدق أنه الشخصية نفسها. أي عندما يتقمص دوره تقمصا كاملا حتى ينسى نفسه تماما!
- تقصد أن هذا هو ما يحدث لنا في حياتنا الفعلية؟
- بالضبط. ومأزقنا أشبه بانغماس الممثل في دوره إلى درجه تنسيه نفسه بشكل كامل فيأخذ الصراع الدائر في المسرحية على أنه شيء حقيقي. ويأخذ نفسه على أنه

الشخصية والدور الذي يؤديه، حينئذ لا يصبح ممثلا للدور بل مُتَقَمَّصَا بالدور. وطبعا كل ما يعيشه نتيجة لذلك ليس له معنى، هو معاناة لا موجب لها ...

تعالت ضحكة ''راجي'' وهو يقول:

- إن المفارقة تصل هنا إلى أقصى درجاتها! تخيل أنك – ما دمنا نتجول في هذا الحي – أنك السيد عبد الجواد(*)، مثلا!
- أو ياسين(*)، مثلا!
- على ذلك نستطيع أن نقول إن كلا منا يؤدي دوره بأقصى قدر ممكن من الإتقان، فلا يمكن حتى تخيل أن بالإمكان أن نؤديه بشكل أفضل!
- بالطبع فإن المطلق نفسه هو الذي يؤديه!

كانا قد وصلا إلى مقهاهما المفضل فاختارا ركنا غير مزدحم جلسا فيه. أنعشتهما تلك الضحكات وجو المقهى الصاخب وحركة النادل التي لا تهدأ. اعتادا على تلك الجلبة. لم تكن تطغى على تواصل حديثهما، بل كانت خلفية محببة تبث في حماستهما للنقاش حيوية خاصة.

- ''محب''، إذا كانت هذه مسرحية فلمَ السعي في الحياة أصلا؟
- أنت تعرف حقا أنه دور ولكنك لا تعرف النص!
- نعم، إننا نكتشف النص ونحن نؤديه!
- إن الكاتب – وهو نفسه المخرج والمنتج والموسيقار والعازف ومهندس الديكور والصوت والإضاءة – يبدع النص وهو يؤديه ...
- هذا على الأقل يترك مجالا للحرية ...

(*) من شخصيات ثلاثية نجيب محفوظ التي تدور معظم أحداثها في حي الحسين.

- من زاوية الممثل الظاهري لا حرية هناك، لأن الدور يُؤَدَّى من خلاله، إذا جاز التعبير، أما من زاوية مبدع النص فالحرية مطلقة. إن النص يتخلق لحظة بلحظة. إن الحياة ببساطة تحدث. الحرية في مفهوم الأنا هي سعي منطلق من إحساس بعدم الاكتمال هي سعي تعويضي من جهة، وتطلعي من جهة أخرى. أما الحرية في حالة معرفة الذات فهي اسم آخر لهذه المعرفة. هي تصرف منطلق من إحساس بالاكتمال يكون تعبيرا عن الحب. في حالة الحرية المكتسبة من تجربة معرفة طبيعتنا الحقيقية، فإن ما نفعله هو ما تمليه ضرورات الوضع القائم من منظور عملي وظيفي. لأنك لا تكون متعلقا بنتيجة معينة. الاختيار يكون عندئذ اختيارا وظيفيا غير محمل بشحنات نفسية ترجو من ورائه إشباعا ما. فالحرية الداخلية ليست متوقفة على أي شرط خارجي لها ...
- لا حرية هناك للممثل الظاهري إذن؟
- إذا استَوفى الشرطين: التخيل والتصديق. أي إذا تخيل أنه شخصية محدودة فانية وصدق ذلك. ولنلاحظ هنا أن التخيل والتصديق لا يحولان وهماً إلى حقيقة. أي أن ما ''يبدو'' كحقيقة يظل دوما مرهونا بهذين الشرطين، التخيل والتصديق. لكن ما أن يُستوفى الشرطان حتى تتحول الحياة إلى بؤس كامل، لا حرية حقيقية فيها ...
- وما معنى سعينا إذن للحرية؟
- إذا نحينا مؤقتا مسألة الحرية السياسية أو الاجتماعية، التي سنتناولها في موضعها من حوارنا كما أعتقد، لأننا نُعنى الآن بعالمنا الباطني، إذا صح التعبير، سنجد أن الممثل، ما دام يتصور أنه السيد عبد الجواد، أي ما دام قد تخيل أن الحضور الواعي ما هو إلا أنا محدودة – فإن الحرية المتاحة له ستكون بين مأزق وآخر، ليس إلا!
- حقا ... لم انظر للمسألة من هذا المنظور من قبل!

- لكن هذا أمر قابل للتغيير لحسن الحظ. وذلك بتفكيك هذا التخيل والتصديق. كأنك تُذكِّر الممثل بهويته الحقيقية، بأنه ليس السيد عبد الجواد!
- كل المطلوب إذن هو أن نتذكر هويتنا الحقيقية؟
- بالفعل. هذا هو كل المطلوب. فالمسافة التي تفصلنا عن السعادة ليست لا في الزمن ولا في الأشياء ولا حتى في السعي لنيلها. المسافة التي تفصلنا عن السعادة هي تشييء الوعي، في تصور أن الذات هي محض شيء، في تغافلنا عن مصدر السعادة الحقيقي: حضورنا الواعي ...
- لكن إذا لم تكن هناك حرية، فليست هناك مسؤولية أيضا! فكيف تحاسب الناس عندئذ على أفعالهم؟ يستطيع اللص، مثلا، أن يقول إنه ليس حرا، إنه غير مسؤول، وإنه ليس سوى ممثل يؤدي دورا في مسرحية!

رد ''محب'' ضاحكا:

- ويستطيع القاضي أن يحكم عليه بالسجن ويقول الشيء نفسه!

ضحكا كلاهما ضحكة صافية، ثم قال ''محب'':

- عندما شبهنا عالمنا الظاهري هذا بالحلم كنا نريد أن نركز على عنصر التخيل والتصديق القائم فيه الذي يجعل الحالم يجهل حقيقته، مثلما يجهل معظم الناس حقيقتهم ويتصورن أنهم كيان ثابت قائم بذاته، في حين أنه لا يوجد إلا في وجود ذات تدركه. وكنا نريد أيضا أن نوجه انتباهنا إلى أن هذا العالم الظاهري مصنوع من مادة الوعي، إذا جاز التعبير. وكنا نريد كذلك أن نقول إن بوسعنا، حتى وإن كنا في الحلم، لا أن نستيقظ منه بل أن نستيقظ له، وذلك بالمضي في عكس الاتجاه الذي جئنا منه، أي بتفكيك التصديق والتخيل، كما قلنا من قبل. وعندما شبهنا هذا العالم الظاهري بالمسرحية كنا نريد أن نسلط الضوء على أن ''الأنا'' – غير الموجودة

أصلا، إلا كتخيل مُصدَّق – ليست هي الفاعل الحقيقي. لكننا قلنا ذلك بعد أن قررنا أين يكمن مصدر الهوية ومصدر الحرية ومصدر الفعل.

- أحاول أن أتابعك يا ''محب''، لكنك لا تدري ما تفعل بي الآن! من إذن الذي أبدع كتاباتي؟ من الذي نسج هذه الشبكة العريضة مع قرائه؟ من الذي يكتب عنه النقاد؟ أنت تريد أن ترمي بكل ذلك إلى العدم ...
- أعرف. هذه الرؤية تجعلك ''تفقد أعز ما تملك''!
- كفاك هزلا! أنا جاد فيما أقول!
- لا تغضب! فلأقل، ما دمت أكلم كاتبا فذا، إن هذه الرؤية تجعلك ''تفقد ظلك''(*)، تصورك عن نفسك!
- هذا انقلاب كامل! لكن من أين يأتي هذا الشعور بأنني أنا مصدر الإبداع؟
- أحيانا أكتب أنا أيضا أشياء، لا ترقى بالتأكيد لمستوى إنتاجك، لكنني أشعر عندئذ أنني مجرد يد تخط ما يصدر من مكان خفي ...
- المبدعون يسمونه الإلهام يا سيدي!
- بالضبط. نحن نُلَهم بشكل ما. هذا ما يبدو أنه يحدث بالفعل. لكننا نستملك بعد ذلك ما أُلهمناه! وإن ظللتَ مُصراً على أنك مبدع أعمالك فإن ''الوعي'' يمكن أن يطالبك بحقوق المؤلف!

ضحك ''راجي'' ضحكة لا تخلو من حنق ثم قال:

- لكنك لن تنكر دوري تماما في الإبداع. هذه القدرة الفريدة على القص التي أشاد بها النقاد ...

قاطعه ''محب'' قائلا:

(*) ''الرجل الذي فقد ظله'' رواية شهيرة لفتحي غانم بطلها كاتب صحفي.

- وهل تتصور يا ''راجي'' أنك أنت مصدر أفكارك؟
- بالتأكيد!
- عظيم. هل تستطيع إذن أن تقرر ألا تفكر إلا في أفكار سارة؟ أو ألا تفكر مثلا على الإطلاق؟

أحاب ''راجي'' بعد تردد:

- كلا. إن الأفكار لا تفتأ تتوارد على خاطري ...
- بالضبط. أنت لست مصدر الأفكار من حيث إنك ''أنا'' قائمة بذاتها، ''أنا'' تستملك بشكل بَعدي ما يتوارد على الذهن من أفكار. لكن أنت مصدر تلك الأفكار من حيث إنك الوعي اللانهائي ...

أجاب ''راجي'' ضاحكا:

- هذا يترك لي شيئا ما على الأقل!
- ما الإبداع الحقيقي إلا إبداعنا لحياتنا ذاتها عن طريق معرفة طبيعتنا الحقيقية ...

جاء النادل يطلب الحساب، وشعر الصديقان بأن لقاءهما اليوم قد أتى إلى خاتمته فقاما يسيران مجددا في الشوارع الضيقة الصاخبة للحي القديم إلى أن خرجا إلى شارع الأزهر. أوقف ''محب'' سيارة أجرة وودع صديقه بعد أن اقترح عليه أن يأتي هو، هذه المرة، إلى بيته في آخر الأسبوع.

• • •

لم يشعر ''راجي''، برغم تأخر الوقت، أنه راغب في العودة إلى بيته الآن. كان يحتاج لأن ينفرد بنفسه، لكن ليس في مكان مغلق. ألقى بنفسه إلى الشوارع التي يعرفها جيدا علها تتلقفه وتحنو عليه. نعم كان يريد الانفراد بنفسه لكن في جو يمده بزاد خفي يجدد تواصله بجذوره.

ما الذي مر به أمس واليوم. وما هذا الطريق الذي ينفتح أمامه؟ كم كان يرجو، عندما تشتد حيرته، أن يهتدي إلى إجابات عن أسئلته العنيدة تريحه من الأعماق. فهل بدأ يتعرف على هذه الإجابات؟ وهل هو مستعد حقا للتعرف على ما فيها من جديد؟ أم أنه أَلِفَ، من فرط طول العشرة، حيرته المزمنة حتى أصبحت جزءا من هويته لا يريد أن يتخلص منه؟ ألم يكن يزهو خفية بين رفاقه أحيانا بهذه الحيرة التي تعطيه سمت الفيلسوف غير القانع بشيء والقادر على تفنيد كل رأي؟ ألم تكن تلك الحيرة جزءا من شخصيته؟ أم هي تمثل – رغم هذا القناع الظاهري – نداء من مكان أعمق في نفسه يتطلع حقا إلى اليقين؟ وهل هو مستعد حقا لدفع ثمن المعرفة، حتى لو كان الثمن هو، كما قال ''محب'' متهكما، أن يفقد فكرته عن نفسه؟ إن ''إنجازاته''، حتى لئن لم تكن قد جلبت إليه السكينة التي يرجوها، فإنها مع ذلك إنجازاته هو، من صنعه هو. هل هو مستعد أن يتخلى عن هذه ''الأنا'' التي يعرفها أكثر من كل شيء آخر؟ هل هو مستعد، في هذه المرحلة من حياته، لانقلاب من هذا النوع؟

لا ينكر أن هذه الرؤية التي تعرض عليه دفعت باباً يطل منه على منظور جديد يناديه نداء خفيا. لا يطل فقط، بل جعلته بمعنى ما ''يتذوق'' طعم ذلك الشيء الذي يسميه ''محب'' الحضور الواعي. ذلك المطلق ...

ثم ... هذه ليست أول مرة يخوض فيها انقلابا كاملا. لقد جرب ذلك مرارا سعياً وراء اليقين. آلام المخاض في كل مرة قد تكون عسيرة، وقد تميد الأرض من تحت قدميه ويحس بالضياع إلى أن يجد توازنا جديدا. لكنه في كل مرة كان يتقدم بشكل ما، حتى وإن راوغه هذا اليقين الذي يطمئن به إلى معرفته للعالم. هل هو مقبل على انقلاب من هذا النوع؟ هل هو انقلاب جديد لا أكثر؟ أم هو ثورة كاملة تُنهي الحاجة إلى أي انقلاب آخر؟

كم تردد في جنبات هذا الحي على حلقات الذكر وجلسات الصوفيين. وقد ترك كل ذلك في أعماقه نقطة نور لا تخبو. صحيح أنه لم يقتنع بكثير مما كان يقال، لكن بقعة النور ظلت كامنة هناك، تشع دوما نوعا من ضياء يذكره بوجودها. هل هي مصدر ذلك النداء الخفي؟

ذكرته نقطة النور هذه بتجربة لا ينساها رغم مر السنين. على شاطئ البحر تمدد على الرمال الدافئة. وفجأة ذابت الحدود على غير انتظار بين جسده والرمال. بينه وبين البحر الذي كان يسمع موجاته وهي تنداح على الشاطئ كوجيب الكون. ثم غابت الحدود بينه وبين السماء اللانهائية. أحس أنه مبثوث في كل شيء. أنه كل شيء. وشعر أنه يطل من عيون كل الناس. أنه يحبهم بلا تفرقة. ظلت هذه التجربة معه عدة أيام حتى عاد إلى القاهرة. ثم غابت ولم ينجح في استدعائها من جديد مهما اصطنع من حيل. في الصيف التالي، تكررت التجربة على الشاطئ أيضا على غير انتظار بمجرد أن استلقى على الرمال. هذه الوحدة مع كل شيء ...

طمرت الأيام تلك الذكرى لكنها ظلت هناك في الأعماق، شأنها شأن نقطة النور ...

هل هو إذن هذا المطلق؟ هو ''راجي''؟ الأمر الذي يدعوه ''محب'' إلى تأمله يتعلق تحديدا بتعريف هذا الـ ''هو''؟ إنه ليس بالتأكيد مضمون وعيه، لأن مضمون وعيه يروح ويجئ، أما وعيه ذاته فلا يذهب أو يأتي. وهو هذا الوعي. وهذا الوعي، كما رأينا، مطلق. هو إذن، من حيث جوهر هويته، هذا المطلق ...

• • •

ترك ''راجي'' منزله قاصدا بيت صديقه وهو لا يتصور أنه أقدم، حينما اقترح على صديقه خوض هذه الرحلة، على مغامرة يبدو أنها في طريقها إلى تغيير نظرته لنفسه وللحياة. كان يعتقد أن الأمر لن يعدو أن يكون ضربا من النقاش الفكري الذي لا يخلو من التشويق أو الإثارة ربما. لكن أن ينتهي به إلى هذا الانقلاب في المنظور؟

ورغم ما استشعره من سكينة غريبة بعد تجربة التأمل الباطني التي وجد نفسه مدفوعا، في الأيام الماضية، لتكرارها وحده، فإن عشرات الأسئلة ما برحت تحتشد في ذهنه. وظل يتقلب بين التوجس والإنكار، من جهة، وبين الرغبة في مواصلة الإبحار والاستكشاف، من جهة أخرى. بين معايشة ذلك السلام العميق أحيانا، وبين تبدده من جديد بتأثير التشكل الماضي أحيانا أخرى. ولكنه عرف الآن أنه يكفيه أن يتأمل عندئذ حالته من موقع الشاهد النهائي،

أن يتأمل حتى حالته التي يتأسف فيها على ''فقدان'' هذا السلام، بلا أي رغبة في التدخل لاستعادة حالة مستطابة أو لاستباق حالة منشودة. ومن هذا الموقع، سرعان ما ينبثق مجددا ذلك السلام. لكن ما أكثر ما سيحتاج إلى العودة إلى تلك التجربة. وما أكثر الأسئلة التي يزدحم بها رأسه. عليه الآن أن يُفرغ كل ما في جعبته. ولكن أسئلته تمضي في اتجاهات متعددة وهو يخشى إن هو طرح واحدا منها أن يقوده في سبيل ينسيه الأسئلة الأخرى. لا بد أن يدون كل هذه الأسئلة.

• • •

يقع بيت ''محب'' في حي قديم من أحياء القاهرة شهد ما شهدته المدينة من تحولات الاكتظاظ والعشوأة. بيوت قديمة تُهدم لتقوم مكانها عمارات عالية تحف بالشوارع الضيقة، فتقتلع الأشجار وتحجب السماء وتملأ الشوارع بسيارات الوافدين الجدد التي تنفث في جو المدينة زفيرها الملوِّث. في ''جيب'' شاءت له الأقدار أن ينجو من هذا الزحف المقدس، يقوم مبنى خفيض يقع فيه مسكن ''محب''.

استقبل ''محب'' صديقه مرحبا وقاده إلى الغرفة التي يستقبل فيها زواره. للغرفة نوافذ عريضة تغدق ضوء النهار وتطل على حديقة صغيرة سامقة الأشجار تجعل للطبيعة حضورا حيا في المكان. الغرفة مرتبة قليلة الأثاث، مكتب وأرفف كتب وأريكة وكرسيان مريحان.

جلس الصديقان على كرسيين متقابلين.

- ما أخبارك يا عزيزي ''راجي''؟
- أنت تعرف، لا شك، هذه الأيام الأولى ...
- اِحك لي!
- بعض السلام وكثير من الأسئلة!
- وماذا أيضا؟
- يبدو أنني اكتسب قدرة ما على الاستكشاف بنفسي ...

- هائل! أخبرني كيف؟

- يبدو أنني أصبحت أكثر قدرة على استعادة السلام عن طريق تكرار تجربة التأمل التي قمنا بها معا ...

- يبدو الأمر في البداية كما لو أننا نستعيد شيئا فقدناه. لكن ما يحدث في الحقيقة هو أنك تتنبه فقط إلى ما هو موجود دائما، فهذا السلام يشكل ماهيتك. أنت هذا السلام ...

- لكن أمرا مدهشا حدث!

- وما هو؟

- برغم أن تجربة التأمل هذه لم تدم كثيرا فإن تأثيرها ظل يصاحبني فترات طويلة. وفي هذه الأثناء كنت أكثر قدرة على بلورة تساؤلاتي، وربما على اقتراح إجابات ممكنة ...

- عندما نهجر هويتنا الوهمية ونعود إلى هويتنا الحقيقية، نعود في الحقيقة إلى حالتنا الطبيعية أو الأصلية، أو إلى ''حالة المصنع'' كما يقولون. في البداية يبدو الأمر كما لو كان يتطلب مجهودا. غير أن هذا المجهود يتعلق لا بالعودة إلى حالتنا الطبيعية، التي لا تتطلب بحكم تعريفها ذاته أي مجهود، بل يتعلق بهجرة هويتنا الوهمية وما يقترن بها من أحاسيس بدنية وأفكار ...

- لكن تبدد السلام فجأة، بعد أن نكون قد عايناه، والعودة إلى طريقتنا المألوفة في الحياة يكونان أمرا مؤلما أشبه بسقوط مدوٍ ...

- في البداية يكون التعرف خاطفا عادةً ولا ينجح في تبديل النظرة القديمة مرة واحدة. فبعدما نخرج من حالة التأمل هذه، سرعان ما تعود، عند تجدد اتصالنا بالحياة المعتادة، طريقتنا المألوفة في النظر للأمور. فلا تنسى أن الأمر يتعلق بأعمق صور تَشَكُّلِنا. لكن مع معاودة هذا التذكر المرة تلو المرة، ستجد أن الأريج الذي ينبعث من لحظات التذكر هذه يسري شيئا فشيئا ليُعَبِّق يومك بأكمله ...

- لكن رأسي يحتشد بالأسئلة، ولا أبرح أطلب اليقين ...
- لن ندخل دائرة اليقين حقاً إلا إذا عرفنا لأي شيء يخفق القلب ...
- تقصد لمن يخفق القلب؟
- لا، بل لأي شيء يخفق القلب؟ أللحظة الماضية والمقبلة، أم للحاضر الوحيد الحقيقي؟ أيخفق للمطلق أم للنسبي؟ أقصد هل ينسى القلب نفسه في الظاهري الزائل أم يستقر في طبيعته الحقيقية؟
- هذه في الحق من المعضلات التي واجهتها خلال الأيام الماضية. فأن تحاول ألا تعيش في الماضي أو المستقبل أشبه بمنازعة مغنطيس هائل القوة كثيرا ما ينجح في الإطاحة بمقاومتنا ...
- عندما توجد حالة عدم الاكتمال الوجودي، أي عندما تجتذبنا الأشياء ننسى من يعي الأشياء، فنشعر بالإحباط والمعاناة. ورد الفعل التلقائي إزاء أي ألم هو محاولة التخلص منه، أليس كذلك؟
- هو رد فعل تلقائي حقا إلى درجة أننا لا نكاد نلاحظه ...
- والشيء الوحيد الذي يفعله معظم الناس في هذه الحالة هو اللجوء إلى ما هو معروف ومجرب ...
- وما هو ذلك؟
- الشيء الذي نتصور أنه يعادل الألم هو المتعة ...
- وأليس التخلص من الألم أمر مشروع؟
- أمر مشروع تماما. لكن كل طبيب سيقول لك إن المسكنات لا تقضي على سبب الألم. وسيقول لك إن الألم يكون أحيانا منبها إلى خلل هام، أي يكون دافعا لاستعادة العافية ...

- تقصد أن المتع مجرد مسكن؟
- نعم، حتى يزول مفعولها.
- ولكن من أين استمدت المتع قدرتها هذه على تسكين الألم، ولو مؤقتا؟
- لأنها تصرف الانتباه بعيدا عن مصدر الألم. ولأنها إذ تفعل ذلك تنتحل صفة أنها شيء يقيني. أنها شيء حقيقي ويمكن التعويل عليه. إننا نملأ النقصان الوجودي بشيء نتصور أنه يمكن أن يسده. أو نحن، إن شئت، نعادل شيئا نشعر أنه سلبي بشيء نشعر أنه إيجابي.
- ولماذا تقول ''نشعر'' أنه إيجابي؟ فما المانع من أن تكون المتعة شيئا إيجابيا؟
- لا يوجد أي مانع، لولا أنها قد تخفي اقتناعا بأن الحل يكمن في الأشياء لا فيما من يعي الأشياء ...

سكت ''محب'' لحظة ثم أضاف:

- لا يوجد أي مانع يا ''راجي''، لأننا لو نظرنا إلى الأمر من زاوية أخرى لحق لنا أن نتساءل: ألا يكون ما نبحث عنه في الحقيقة لا ما تجلبه المتعة من لذة، بل الحالة الخالية من التوتر التي تعقب ذلك؟ ألا يكون ما نبحث عنه في الحقيقة هو حالة اللارغبة، أي الحالة الخالية من التوتر، التي هي مظهر من مظاهر طبيعتنا الحقيقية؟
- إلى أن يعود التوتر من جديد ونكرر الكرة مرة تلو الأخرى بلا نهاية!
- ولذا من المهم لا تسكين الألم مؤقتا بل معرفة سببه والتخلص منه، أليس كذلك؟
- نعم ...
- أي أننا لن ندخل دائرة اليقين إلا إذ وقر في أعماق نفوسنا أن الشفاء من الألم الناجم عن الاحساس بعدم الاكتمال الوجودي لا يكمن في المتع الحسية أو النفسية على الاطلاق ...

- ''محب''، هل لديك مشكلة ما مع الرغبة؟

ضحك ''محب'' ورد قائلا:

- ليس هذا يا ''راجي''! ليس هذا! المشكلة الوحيدة التي يمكن أن تثور هي مع المعاناة! والإحباط الذي لا يلبث أن يعيدك، بعد إشباع الرغبة، إلى شقاء النقصان الوجودي يدل على أنها – ما دمنا قد استخدمنا هذا المثل – ليست الدواء الملائم للحالة. فهو لا يفعل سوى تقوية موطن الداء، وبالتالي يظل الشفاء متعذرا....
- وما هو موطن الداء هذا؟
- تصور أن النقصان الوجودي يمكن أن تسده محض أشياء! هذا الدواء لا يناسب طبيعة الحالة، لأنه لا يخاطب طبيعتك الحقيقية. فلما كانت طبيعتك هذه لامتناهية، فإن الشيء الوحيد الذي يرضيها يجب أن يكون لامتناهيا بدوره. وهذا هو مذاق الحضور الواعي. رغبتك الحقيقية الوحيدة هي أن تتعرف على هذا المذاق. وما الرغبات الأخرى كلها إلا أقنعة تتخفى بها هذه الرغبة الحقيقية الوحيدة. تجربها الواحدة إثر الأخرى حتى تكتشف أن ما كنت تبحث عنه في الحقيقية ليس الأشياء، بل الحضور الواعي بالأشياء.

سكت ''محب'' برهة ثم أضاف مؤكدا:

- ما دمنا لم نعرف ذاتنا النهائية ونتعرف عليها ونأنس بها، فنوقن بأنها حقيقة متسامية لا تتحول، سنظل نلتمس اليقين في الصور الزائلة وسنظل أشبه بمن يروي عطشه بشرب الماء المالح أو بالجري وراء السراب، يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ...
- أخشى أن أشتم في كلامك رائحة الوعظ الديني المعتاد ...
- نحن لا نتحدث يا ''راجي'' هنا من منظور أخلاقي بل من منظور عرفاني. والذي قصدت أن أقوله هو أننا ما دمنا نتصور أن الحل قائم في الحلم، إذا شئت، أي أن

حل المشكلة يكون بتغيير مشهد ما في الحلم، لن يذهب الشقاء ولن نعرف اليقين الذي نتحدث عنه. لأننا بذلك نتصور أننا بإطعام الشخصية الجائعة في الحلم سنملأ بطن الحالم. هذا هو الوهم الأبدي الذي نجري وراءه. لأننا نخلط بين ذاتنا الحقيقية والصورة المتجلية على سطحها، على صفحة الوعي ... توهم وجود الحقيقة في الصورة هو السراب الحقيقي. وهذا هو الاعتقاد الفعلي لمعظم الناس. وهو أيضاً سر المعاناة ...

- أي سيظل هذا هو الحال حتى معرفة مصدر الارتواء الحقيقي ...
- بالضبط. ولنلاحظ أن المتع الحسية والنفسية لا هي سيئة ولا جيدة في ذاتها. فالرغبة قد تكون الباب إلى الجحيم الذي يعيشه معظمنا كل يوم لأنها تُوهم بأن اليقين الذي تعطيه بديلٌ عن اليقين الوحيد الناشئ عن معرفة من نحن حقاً. هذا هو المصدر الوحيد للسعادة. بل إن السعادة اسم آخر له مثل الحب أو السلام أو الجمال. أما اليقين المؤقت الذي تُوهم به الرغبة فهو زائل ومحبط. أولاً لأنه لا يقضى على مصدر الألم الوجودي، وثانياً لأنه ينطوي على وهم أن الحل في الأشياء، في السراب، وثالثاً لأنه حتى إن حقق راحة مؤقتة، فإن الخوف من فقدان هذه الراحة يصاحبها من اللحظة الأولى، فيصبح سببا لمعاناة إضافية ...
- أتأمل حجم التغيير الذي نحتاجه! وأنا بالطبع أفكر في نفسي أولا ...
- لكن الرغبة لها، يا ''راجي''، وجه آخر كما رأينا. فهي قد تكون الباب إلى الجنة أيضا. فهي تقود إلى حالة اللارغبة، فتدلنا بذلك على سبيل الخلاص الحقيقي. وعندما ندرك من نحن فإن المتعة قد تفتح، على العكس، أبواب النعيم. فهي لا تكون عندئذ تعويضية عصابية بل وليدة فيض وامتلاء. أي تكون مظهرا من مظاهر الحب غير المشروط. إذا وجدت أسبابها فنعماً هي، وإن لم توجد فنعماً به أيضاً. لأننا نكون قد أدركنا مصدر السعادة الحقيقي. واللذة التي تخلقها المتعة تكون عندئذ هدية من الوجود، لا تأسر ولا تحبط. لأنك لا تكون مع الأشياء بل مع من يدرك الأشياء،

مع ذاتك الحقيقة. فعن الاكتمال يصدر اكتمال وعن عدم الاكتمال يصدر عدم اكتمال. وعندما ندرك أننا الحضور الواعي، أننا وجود ووعي، ينبثق تلقائيا عنصر ثالث هو السعادة غير المعتمدة على سبب محدد ...

صمت الصديقان على نحو يوحي بأنهما يتهيأن للانتقال لنقطة جديدة. وبعد برهة قال ''راجي'':

- حتى لو اتفقت معك على أن تصرفات معظم الناس تصدر أو تعبر عن نمط تأكيد الأنا، فإن بوسعنا أن نتبين بينها، مع ذلك، فروقا لا تنكر. فمن المؤكد أن هناك طرقا في التصرف أسلم وأصح وأنبل من غيرها ...
- بالتأكيد، وسنأتي لكل ذلك بتفصيل شديد في موضعه من حوارنا. لكن دعنا نقول الآن إننا إن تجاوزنا نمط تأكيد الأنا وعرفنا طبيعتنا الحقيقية فإن تصرفاتنا ستصدر عن ذلك الحضور الواعي، وستكون عندئذ لا تعبيرا عن عدم الاكتمال الوجودي، بل عن ذلك الحضور الذي لا يعرف الصراع، عن الحكمة والحب والجمال التي هي أسماء أخرى له، وسيجسد أقصى قدر متاح من هذه الصفات ...
- إذن هناك أساس ما – أيا كان هو – للسلوك في الحياة. هذا هو ما كنت أحاول الوصول إليه!
- نعم. ولا مجال بالطبع لإنكار الألم أو الشقاء، لكن المقصود هو توجيه الانتباه إلى أنه قد يوجد ألم لكن لا يوجد متألم. قد يكون هناك شقاء لكن لا يوجد شَقي. لأن هذا الكيان الموهوم غير موجود إلا على سبيل التخيل والتصديق، وإلا بسبب سوء الفهم. وهذا الكيان هو الذي ''يستملك'' الواقعة ويفسرها. تماما كما نستملك أحيانا شخصيات تظهر على الشاشة ونتوحد بها فنتأثر بحظوظها كأنها تحدث لنا، نبكي لحزنها ونفرح لنجاحها، دون أن تكون هذه الشخصية قائمة إلا في الخيال ...

- دعني أقول إذن، ما دام الوعي هو مصدر الفعل، لماذا يوجد أصلا نمط تأكيد الأنا؟ لماذا أختار الوعي أصلا أن يجهل طبيعته؟

رد ''محب'' مبتسما:

- لأن الوعي يحب الدراما على ما يبدو. هل يمكن أن يكون هناك سبب آخر؟ هل هذا هو سبب ولعنا جميعا بالحكايات؟ وهل بينك – أيها الحكَّاء العظيم – وبين الوعي أوجه شبه؟

فرد له ''راجي'' الدعابة قائلا:

- لن أقبل منك هذه الرشوة الفكرية!

- إن المطلق حر حرية مطلقة. وبموجب هذه الحرية المطلقة يستطيع أن يختار ما يشاء، حتى لو كان ذلك أن يتظاهر بأنه ينسى نفسه عن طريق تخيل أنه شيء آخر غير ذاته. فيشقى بحكم هذا التخيل والتصديق، لكن في الظاهر فقط، في الدراما فقط، لأنه لم يكن في أي لحظة سوى ذاته. كالمرآة لا تتغير طبيعتها بتغير الصور التي تظهر فيها. ولا تتأثر بحضور هذه الصور أو غيابها. وفي هذه الدراما تسعى كل ''أنا'' إلى تأكيد نفسها، وهي تتخيل أنها كيان قائم بذاته منفصل عن العالم وعن الآخرين. أي أنه ينسى ذاته في العالم الظاهري دون أن يكف لحظة واحدة عن أن يكون ذاته. لكنه ما أن ينسى نفسه حتى تبدأ رحلة بحثه عنها. أو لنقل، ما دمنا نتحدث عن الدراما، تبدأ لعبة ''الاستغماية''!

- الاستغماية!

- اختباء وبحث. ألا تتفق معي في أوجه الشبه؟ فهناك أولا التخفي، ثم الرغبة في البحث. ثم العلامات المتروكة عمدا على الطريق لتدلك على مكان من اختفى، لأنها في النهاية لعبة. ثم الفرحة العارمة أخيرا بالعثور على ما تبحث عنه!

- وما هي هذه العلامات المتروكة على الطريق، لأنني أحتاج إليها بشدة الآن!

- أن تكتشف الانتقائية الصدفوية لنمط تأكيد الأنا وتتبين أنها لا يمكن أن تقودك إلى معرفة تطمئن إليها، فتحتار وتبدأ البحث. أن تعاني فتعوض هذا النقصان الوجودي بمتع حسية ونفسية شتى لكنها لا تمدك بسعادة مقيمة، فتبدأ البحث. أن تومئ لك هذه المتع إلى حالة اللارغبة الخالية من التوتر فتذكرك على نحو ما بحالتك الطبيعية، فتبدأ السعي. أن يُقذف في وجدانك بنقاط ضوء أو بتجارب تشعرك بوحدتك مع الوجود، لتوقظ حدسك إلى وجهة البحث، فتبدأ السعي. وهذه ليست سوى قلة من علامات أكثر من أن تحصى!

من الذي أخبره عن نقطة الضوء؟ أو عن تلك التجارب؟ هل هو أيضا ''مر من هنا ذات يوم''، لا أكثر؟

- وهل هناك علامات أخرى؟

- نعم، عندما يجتذب انتباهنا ما يحمل أريج المحتجب: الحكمة والحب والجمال! فالحكمة، أي الأفكار التي تجسد فهماً يقودك إلى تجربة الحقيقة، تدلك على طبيعتك من حيث أنت حضور واعٍ، والحب يفيض في نفسك عندما يلتقي هذا الحضور بكل ذلك البهاء المتجلي في العالم فيقود ذاتك إلى ذاتك، والجمال يأسرك عندما يحيلك الشيء الجميل إلى مبدع الجمال ...

- لكننا لا نلتفت في العادة لكل ذلك!

- نعم. يجذبنا موضوع الحكمة أو الحب أو الجمال فتحاول الأنا أن تستملكه وتحوله إلى مصدر جديد للمعاناة. لكن التجربة تترك فينا شيئا يدلنا على مصدر كل ذلك، بشكل ما ...

استغرق ''راجي'' في تفكر عميق ثم قال:

- كل تلك العلامات ولا نكاد نلتفت إليها ...

- والأهم أنها تدلنا بشكل خفي على طبيعة المحتجب، على طبيعتنا التي نجهلها حتى الآن. ويحق لنا أن نتساءل كيف كنا سنتعرف على المختفي، وتنتهي لعبة الاستغماية هذه، لو لم نكن ما نعرف من، أو ما، نبحث عنه حتى ولو بشكل غامض؟

رد ''راجي'' كما لو كان ينتبه إلى حقيقة فاتت عليه:

- أي أننا كنا نبحث عن أنفسنا طول الوقت في كل تلك الأشياء والتجارب؟
- بالضبط. وأهم اكتشاف يصبح عندئذ يا صديقي العزيز أن الباحث هو المبحوث عنه، أو أن ''الراجي'' هو المرجو!
- أي أن اسمي لم يختر صدفة تماماً!
- وهل تريد أن تغيره الآن؟ هل تريد أن تسمي نفسك ''المرجو'' مثلا؟

أجاب ''راجي'' ضاحكا:

- ليس قبل أن أجد نفسي!

ضحكا معا ثم تذكر ''محب'' أنه لم يسأل صديقه ماذا يود أن يشرب، فاقترح عليه أن يعد له فنجانا من القهوة التي يعرف أنه يحبها وأن يعد لنفسه كوبا من الشاي.

ذهبا إلى المطبخ الصغير وعادا بمشروبيهما ووقفا لحظة يتأملان الحديقة التي تشرف عليها الغرفة ثم قال ''راجي'':

- يبدو أن المتخفي لا يترك على طريقنا العلامات وحدها!
- ماذا تقصد؟
- أقصد أنه يضع العقبات أيضا!
- أنت أدرى بشروط الدراما!

عادا إلى مجلسيهما وما لبث ''محب'' أن قال:

- ما العقبات إلا المفاهيم الخاطئة المرتبطة بتصور أننا كيان منفصل وفانٍ. وهي كذلك كل أنماط الأحاسيس البدنية والمشاعر، التي ترتبط بتلك المفاهيم، والتي ترسخت بمضي الزمن. وتفكيك كل ذلك هو ما يشكل رحلة البحث ...
- وهو ما يقودنا يا عزيزي ''محب''، إلى مسألة أريد أن أطرحها عليك. مسألة ربما تبدو ذات طابع فلسفي، لكنها وثيقة الصلة في تصوري بما نناقشه الآن ...
- لعلك لاحظت يا ''راجي'' أن كل ما نناقشه من مسائل يندرج ضمن ما يمكن أن نسميه الفلسفة العملية. فنحن لا نناقش أي قضية ولعا بالجدال النظري، بل لأن لها جانبا عمليا تطبيقيا يتعلق بأعمق جوانب حياتنا. ولعلك لاحظت أيضا أننا لم نناقش أيا منها إلا انطلاقا مما تدل عليه تجربتنا ...
- بالفعل. كل مسألة نطرحها لها طابع فلسفي بشكل ما، لكنها أيضا وثيقة الارتباط بحياتنا الفعلية وبتجربة كل منا. والذي أتساءل عنه هو: ألا يمكن أن يكون هذا الوعي الذي نتحدث عنه قد نشأ عن المادة؟ ألا يحتمل أن يكون هذا الوعي ثمرة تطور طويل أفضى إلى ظهور الحياة، كما يشرح العلم مثلا، أي إلى ظهور الوعي بدرجات متزايدة من التعقيد والعمق حتى بلغ أرقى مستوياته لدى الإنسان في لحظة معينة من تطور الكون؟ أُدرك أن الوعي، بالمعنى الذي تتحدث عنه، لانهائي ومطلق. لكن هل يمكن، وأعذرني على ما قد ينطوي عليه هذا السؤال من تناقض، أن يكون الوعي قد ظهر في لحظة معينة ثم اكتسب عندها تلك الخصائص؟ أو، إن شئت الدقة، أسقطنا نحن عليه عندها خصائص المطلق هذه بشكل بَعدي؟

ظل ''محب'' صامتا لبرهة مستغرقا في أفكاره لفترة ليست بالقصيرة ثم قال:

- لكن ما الذي اكتشفه هذا الفكر، الذي ظهر في لحظة معينة من تطور الكون، عندما أخذ يتساءل عن طبيعة تجربة الوجود، عن طبيعة هذا الحضور الواعي؟ ألم يكتشف أن الوعي يمكن أن يكون موجودا بمعزل عن مضمون الوعي، أن الوعي

موجود بصورة مستقلة عن الإدراك والفكر، أنه موجود في وجود الإدراك والفكر وفي غياب الإدراك والفكر. ألم يكتشف، إذن، أن الوعي سابق على الذهن وموجود بدونه؟ ألم يكتشف، إذن، أن وجود الذهن ليس شرطا لوجود الوعي؟ ألم يكتشف، إذن، أن الذهن هو الذي يظهر في فضاء الوعي أو داخل الوعي، وليس الوعي هو الذي يظهر داخل الذهن؟

- وما الذي يدل عليه هذا في ارتباطه بقصة التطور تحديدا؟
- قد يكون هناك زمن متتالٍ ما لم يكن فيه ذهن قادر على إدراك الحضور الواعي، لكن وجود الحضور الواعي لا يعتمد على أن يدركه هذا الذهن أو ألا يدركه، لا يعتمد على أن يكون هذا الذهن قد ظهر، أو لم يظهر بعد ...

سكت ''محب'' برهة ثم استكمل حديثه قائلا:

- ظهور الفكر في لحظة ما من تطور الحياة، ما هو إلا جزء من الحلم الدائر في ذهن الوعي، إذا جاز التعبير، أو ما هو إلا جزء من تجلي الوعي في الزمن المتتالي على هيئة هذا الكون المتطور. ومع ذلك يبقى الوعي ذاته – من حيث جوهره وماهيته – قائما في الزمن السرمدي. غير أن ما هو قائم في الزمن السرمدي، يوجد أيضا في كل لحظات الزمن المتتالي. الحضور الواعي قائم إذن في الزمن السرمدي، بصرف النظر عن ظهور أو عدم ظهور الإدراك في لحظة ما من لحظات الزمن المتتالي. قصة التطور قد تظهر على صفحة الزمن المتتالي. لكن الوعي وما يتجلى على سطحه – أي قصة التطور في هذه الحالة – ليسا حقيقتين منفصلتين إحداهما عن الأخرى. كلا نحن إزاء حقيقة واحدة. فقصة التطور ما هي إلا تجلي الوعي الواحد في الزمن المتتالي على هيئة هذه الكثرة المتنوعة المتطورة. لكن هذه الكثرة لا هوية لها في ذاتها هي مجرد تجلٍ أو مظهر للواحد. جوهرها متسام لا يتغير ومظهرها حُلول متغير. وعليه، فإن هذا الكيان الذي ظهر فيه الفكر في لحظة ما لا يحتوى إذن على الوعي كخاصية من خواصه، بل هو مجرد تجل للوعي ظهر في لحظة معينة من لحظات

الزمن المتتالي. الوعي لا يظهر في هذا الكيان البدني الذهني، بل إن هذا الكيان البدني الذهني هو الذي يظهر في الوعي، تماما مثلما يظهر جسمنا الحالم في إدراكنا الحالم.

سكت ''محب'' على نحو يوحي بأنه أنهى كلامه. وبعد برهة قطع ''راجي'' صمتهما قائلا:

- هل لاحظت يا ''محب'' أننا ما برحنا نتحدث كل هذا الحديث عن الوعي دون أن نُعَرِّفَه؟
- ربما لم نكن بحاجة إلى ذلك. ربما لأنه أقرب إلينا من حبل الوريد ...
- لكن ألا نستطيع أن نسوق له تعريفا ما؟
- ما دمنا كنا نتحدث دون أن نحتاج لأن نطرح هذا التعريف – إذ يبدو أننا كنا نأخذه مأخذ الشيء المعروف، الحميم والبديهي في آن واحد – قل لي إذن كيف تُعَرِّفَ الوعي؟
- هو في رأيي ذلك الشعور البسيط بالوجود ...
- هو ذلك لولا أني أخشى أن يوحي هذا التعريف بأنه مجرد شعور. والشعور هناك من يدركه. كما أن الشعور زائل ومتغير. لكن الوعي دائم لا يتبدل.
- فكيف تُعَرِّفه أنت؟
- الوعي هو، مثلا، الحضور الذي يدرك هذه الكلمات الآن. هل يرضيك هذا التعريف؟
- نعم أتصور أنه تعريف موفق ...
- كل التعاريف وكل المفاهيم لا تفعل سوى الإشارة أو الإحالة إليه لا أكثر. لكن المهم هو معاينته معاينة مباشرة. ما رأيك، بهذه المناسبة، في أن نقوم بتجربة تأمل جديدة؟

- تلك اللحظات الساحرة!

اعتدل الصديقان في جلستهما ففردا ظهرهما وأغلقا عينيهما. ساد صمت هادئ ثم أخذ صوت ''محب'' يتردد في نبرة وئيدة:

التأمل الباطني ليس نشاطا أو تمرينا .... إنه غياب النشاط. في البداية يبدو التأمل كأنه عودة إلى حالتنا الطبيعية، حالتنا الأصلية. وسحب الانتباه على هذا النحو من الأشياء إلى من يدرك الأشياء قد يبدو منطويا على قدر من الجهد. لكن عندما نستقر شيئا فشيئا في حالتنا الطبيعية الحميمة هذه يصبح المجهود هو في الخروج منها. إلى أن نستقر فيها بشكل دائم أو شبه دائم.

هل نحتاج لأن نتكلم عن حالتنا الطبيعية؟ لعلنا لا نحتاج ولكننا نحب. والحب لا يحتاج إلى تفسير. الحب هو تفسير ذاته.

المحب يدور حول دار المحبوب الذي ليس سوى قلبه هو. هذه الكعبة هنا. أني أراه بقلبي ولكنه، ما أرحمه، أراد لي أن أطالعه أينما ألتفت. فأينما تولوا فثم وجه الله.

كل هذا إذن هو وجه الحبيب. لقد شئت أن تُعطي ما تتجلى فيه القدرةَ على أن يبدو في الظاهر مختلفا عنك، لا لشيء سوى لأن يسعى إليك. فيخاطبك مخاطبة المحب للمحبوب وأنت في الحقيقة لا تخاطب إلا ذاتك. عندما يسمع البعض مناجاتي لك يتصورون أننا اثنان. في حين أنك تتحدث بصوتي وترى بعيني وتسمع بأذني. وما ضمير المتكلم في الكلمات ''صوتي وعيني وأذني'' إلا ضمير المخاطب في الكلمات ''تتحدث وترى وتسمع''. فقد شئت أنت تتجلى مختلفا عن ذاتك. ولذلك لا أستطيع حتى أن أقول إنك كل شيء كأنني أتحدث عن وحدة وكثرة. أنت الوجود يتخلق دون أن تغادر أنت ذاتك.

فالرائي والمرئي يغيبان في وحدة التجربة أي في الرؤية التي تحدث في الحاضر اللحظي. ثم يأتي الفكر ليفرق ويقول لقد رأيت كذا وكذا. لا سامع ولا مسموع في تجربتنا الفعلية بل سمع. ولا مدرِك ولا مدرَك بل إدراك. لا فاعل ولا مفعول بل فعل.

لقد عَوَّدَنا تَشَكُّلِنا على تصور أن هناك حقيقة خارجية موضوعية نحن منفصلون عنها. فأقف أنا هنا ويقف العالم خارجي هناك. وعلى تصور أن الرائي موجود هنا والمرئي موجود هناك. وأن مركز الرؤية يوجد داخلنا. ولا ندرك أن هذا الرائي مزيف لأنه مرئي بدوره. لأن الرائي النهائي لا يُرى، كالعين تماما تَرى ولا تُرى. إن الحضور الواعي هو الذي يتجلى كهذا الكيان البدني الذهني وكهذا العالم. فما نحن في الحقيقة إلا الوعي الذي يتجلى من خلال وسائط الإدراكات الحسية والأحاسيس البدنية والأفكار. وهذا هو في الحقيقة معنى غياب الانفصال.

فالهوية المنفصلة وهم شأنها شأن اعتقاد موجة في البحر أنها كيان قائم بذاته منفصل لا عن الأمواج الأخرى فحسب، بل أيضا عن الماء، جوهرها الذي تجلى كارتعاشة خاطفة تظهر على سطح البحر في لحظة معينة وتنحل في لحظة أخرى. أما الماء، قوامها الفعلي، فهو دائم لا يتغير.

فحقيقتك هي حقيقة كل ما يظهر. فأنت تظهر ككل هذا الوجود. وأنت جوهر كل ذلك. أنت نور الشمس وظلمة الليل، حمرة الأحمر وسواد الأسود، قسوة الحجر ونعومة الرمال، رحابة الفضاء وحدود الجسد، طراوة الندى ووهج النار. أنت كل شيء ...

لقد قَسَّمت دراما الخلق، ظاهرياً فقط، واحدانيةَ الوجود إلى ثنائيات العالم المتجلي على هيئة نور وظلام، وحر وبرد، وسالب وموجب، ومتعة وألم، وصحة ومرض، وراحة وتعب. ولكن هذه الدراما لا تمس الجوهر المتعالي المتسامي

والحال أيضا في كل شيء. الدراما لا تمس الوعي إلا بقدر ما تمس الحريق في الحلم جسد الحالم. وليس لها من حقيقة إلا بقدر ما للحريق في الحلم من حقيقة.

أهلاً إذن بكل مشاهد الفيلم. فمن ذا الذي يخشاها؟ أنت لست محصوراً محشوراً في هذا الدور. فكل هذا يدور في الحقيقة داخلك، ولست أنت الذي تدور داخله. وهذا الفارق هو الفارق بين الجنة والنار.

وأصل هذه النار، المعاناة، هو عدم معرفتك لحقيقتك. وأصل هذه الجنة، السعادة، اكتشافك أنك الشاهد المراقب غير المتورط في أحداث الفيلم. يتراجع الانغماس في معايشة القصة التي تتابع أحداثها على شاشة الوعي. وتنسحب أنت عن التوحد بالشخصية التي طالما اعتقدت أنها تمثل حقيقتك. أنت الآن في العالم ولكنك لست من العالم ...

وكلُ ما يقع تراه عندئذ أشبه بواقعة كونية لاشخصية. لا فرق هناك بين مرض أصابك مثلا وبين سقوط المطر. الحياة ببساطة تحدث. والأحداث التي تتتابع لا تطال حقيقتك ...

تعرف أخيراً أن هذا هو مآلك الحقيقي، أن هذا هو ما كنت تبحث عنه طول الوقت. وما كان أقربه. تكفي هذه الخطوة البسيطة إلى الوراء لتجد نفسك في أحضان نفسك الحقيقية. أخيراً وجدت ضالتك وانتهت رحلة الشقاء. تعرف أن كل ما سيأتي بعد ذلك سيكون مختلفاً تماماً ... هذه هي ذاتك الحقيقية. وهذا ما كنت تبحث عنه طول الوقت ... فجأة يأخذ كل شيء مكانه الطبيعي في نظام الكون البديع ... هذه ببساطة هي الحالة الطبيعية. هذا هو التوحد بالمطلق وهو الفناء والحلول. لكن حتى في هذا التصور ثنائية. كأنما هناك شيء يتوحد بشيء، أو يفنى أو يحل فيه. كل ما يحدث أن الزائف يزول في ضوء الفهم، فلا يبقى إلا الحضور. هو الوعي الذي

يكتشف ذاته ويعود إلى ذاته. وكل هذا مبسوط متاح للجميع. لا ضرورة لمجاهدات لا نهاية لها، الحياة تتبدى في كل بساطتها. وهذا مظهر آخر لبساطتها. تتذكر ما وقر دوماً في أعماق حدسك وهو أن هناك معنى من كل بد، وأن كل ذلك لا يمكن أن يكون عبثاً. وأن هناك نظاما طبيعيا للأشياء وأنك تتجلى كهذا الكل ...

وتتحدث بلسان المحبوب فتقول: لا مسافة تفصلني عن أي شيء، أنا مادة كل شيء. أنا حقيقة كل شيء. كل شيء يحدث على مسافة صفر مني. أنا بديع كل ذلك التناغم البديع، وجعلت أعظم متع الحياة هي اكتشاف ذاتي لذاتي، هي في التخلص من الحدود والرجوع إليّ. الرجوع إلى الفسيح المترامي بلا نهاية. كل شيء يحيل إليّ ولذلك جعلت أبدع شيء هو تجربة الجمال والحب والحكمة، لأن كل ذلك يحيل إليّ، أنا المكتفي بذاتي، الناعم بذاتي. أنا مذاق السعادة في كل بسمة، في كل ضحكة تخرج من القلب، ومذاق الشجن في كل دمعة تهمي، كل ذلك يعود إليّ.

كل إدراك هو عناق دائم بين المطلق والنسبي، بيني وبيني. أخلق الشيء لكوني حقيقته، ويعود إليّ لأني حقيقته. الحياة حب دائم بيني وبيني. وما كل التظاهر بالنسيان إلا حجة لألتمس نفسي في أشياء تعطي مجرد لمحة سريعة مني، حتى يظل الشوق حيا مستعرا، وحتى يتعب النسيان من النسيان، وحتى يقود إحباط الشيء من الشيء إلى الرغبة في اكتشاف حقيقة الشيء، إلى اكتشافي كما أنا مستتر لا كما أنا ظاهر. الحياة عناق دائم بيني وبيني.

سكت صوت ''محب'' وغرقا الصديقان في سكينة بدت كما لو كانت تنتمي لبُعد آخر. وبعد فترة طويلة فتحا عيونهما واعتدلا في جلستهما وعليهما إمارات استرخاء عميق. ثم التفت ''محب'' إلى صديقه وسأله بصوت هادئ خفيض:

- ''راجي'' هل عرفت من أنت؟

أشرق وجه ''راجي'' بابتسامة صافية وطفرت من عينه دمعة فرح.

• • •